الأدمغة المفخخة

زين العابدين الركابي

© دار غيناء للنشر، ١٤٢٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الركابي، زين العابدين
الأدمغة المفخخة. زين العابدين الركابي ـ الرياض، ١٤٢٤هـ
٢٤٨ص، ١٤,٥سم×٢١سم
ردمك: ٥ـ ٠ـ٩٤٥٤ـ٩٩٦٠
١ـ الإرهاب الدولي ٢ـ الإسلام ـ دفع مطاعن أ. العنوان
ديوي ٣٢٧,١٢ ٣٦٤٢ / ١٤٢٤هـ
رقم الإيداع: ٣٦٤٢ / ١٤٢٤هـ
ردمك: ٥ـ ٠ـ٩٤٥٤ـ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

الناشـــــر

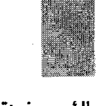


غيناء للدراسات والإعلام
هاتف: ٢٤٨٧٨٧١ - فاكس: ٢٤٩٨١٣٠



بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



المقدمة

ما أولويات الناس على هذا الكوكب؟..

لعلها: الحرية أو الهرولة إلى الله. أو الغذاء الجيد. أو العلاج الناجع. أو التعلم. أو البحث العلمي. أو الاستقرار السياسي. أو الوظيفة المجزية. أو الزواج السعيد. أو السياحة والرفاه. أو زيادة معدلات الإنتاج. أو المسكن الواسع. أو المركب الهنيىء؟.. لاجرم أن هذه ـ ومثلها معها ـ أولويات للأناسيّ المنتشرين في الأرض ـ كل بحسبه ـ. فالناس يختلفون في أولوياتهم باختلاف حاجاتهم إلى هذه المطالب.. ولئن اختلف الناس في هذه المقاصد والأسبقيات من حيث إن (سعيهم شتى)، فهم متفقون ـ بالضرورة ـ على ما لا خلاف فيه.. متفقون على المطلب الأول الجامع الذي يهتف به الجميع، ويجعلونه الرقم (١) في أجندة حياتهم ـ الخاصة والعامة: اليومية وطويلة المدى.. هذا المطلب المتقدم، المنعقد عليه الإجماع هو (الأمن)، أو (البيئة الآمنة).. وإجماع الناس كافة أو اتفاقهم على هذا المطلب الأول مؤسس على عقلانية واقعية هي: أن المطالب الأخرى تفقد قيمتها وطعمها، بل تفقد وجودها الحقيقي والمريح حين تُفقد البيئة الأمنية، أو يضطرب الأمن العام.. لقد استفاض الحديث

السياسي والإعلامي والثقافي والقانوني عن (حقوق الإنسان).. ووفق منهج ترتيب الحقوق، يظفر (حق الحياة) بالمرتبة الأولى بلا ريب، وهذا الحق يدور مع (الأمن) وجوداً وعدماً. بمعنى أن حياة الإنسان مهدرة أو مهددة بالإهدار في حالة انعدام الأمن. وعندئذ لا يكون للحقوق الأخرى ـ كالحرية والكرامة والتعلم والمسكن والمطعم ـ معنى ولا قيمة واقعية ممارسة، إذ كيف يشعر العروسان ـ مثلاً ـ بحلاوة اللقاء والحب والأنس إذا استبد بهما الخوف وهما في البيت أو السوق أو الطائرة أو المتنزه؟

هذا مفهوم أصل للأمن، ينبغي أن يصحح بمقتضاه: المفهوم الأمني التقليدي المنحصر في الإجراءات العادية والمحدودة.. ومن قواعد التصحيح: توسيع المفهوم الأمني توسيعاً يجعله أمناً ثقافياً وفكرياً وإعلامياً واجتماعياً وشعبياً وحضارياً ومدنياً وإنسانياً وعالمياً شاملاً، يتغلغل في حياة الناس كلهم بلا استثناء، ويكترث به كل أحد، ويشارك في توفيره وحراسته كل أحد.

حين تَزَاوَرَ الناس، أو معظم الناس، في عالمنا هذا: عن هذا المفهوم: امتلأ الكوكب بـ (المهددات) الأمنية من كل نوع.

وكان (العنف الإرهابي) ـ ولا يزال ـ من أعتى هذه المهددات وأشدها قصفاً وبلاء ورعباً. ذلك أن من خصائص هذا العنف الدامي: التدبير الآثم في الظلام.. واحتراف مباغتة الناس بما يحرمهم صفو اليقظة ولذة النوم.. واستباحة الدم الإنساني.. وتعمد نشر الفزع والرعب.. وتخريب كل شيء بإطلاق.. وهذه قصة طويلة حزينة دامية بدأت باغتيال قابيل، شقيقه هابيل في



مبتدأ المسيرة البشرية.. واطردت القصة في العصور التالية، بصور مختلفة.. وفي عصرنا هذا: حصل الإرهابيون على أدوات وتقنيات مكنتهم من تطبيق الفكر الغابر ـ فكر قابيل ومن قلده من بعد ـ بوسائل عصرية!!

ودون استباق لما في الكتاب ـ من حقائق ووقائع وأفكار ـ نود أن نجمل القول، أو نجتلي المفاهيم التالية:

١ـ لقد بُذلت جهود وطنية وعالمية ـ مفردة أو منسقة ـ من أجل مكافحة العنف والإرهاب، ولكن غلب على هذه الجهود: (النظرة السطحية) إلى هذه القضية.. ومبعث هذه النظرة أو الرؤية:

أـ الاغترار بـ (الإجراءات الأمنية) القوية من حيث كثافة المتابعة، وتنوع الوسائل التقنية، والأساليب القانونية. وليس يماري عاقل في جدوى هذه الإجراءات. بيد أن (الاغترار) بها يلهي عما هو أجدى منها.

ب ـ التفسير الناقص والمضطرب للظاهرة. فلم تكد قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تقع حتى ازدحمت الأرض وازدحم الفضاء بالتفاسير التي لا حصر لها.. وأظهر هذه التفاسير:

* تعليل العنف والإرهاب بـ (الفقر).. وهذا تعليل غير صحيح بهذا الشمول والاستغراق.. فمعظم الفقراء في العالم (مسالمون): يكدحون ويصلون نهارهم بليلهم من أجل قوتهم اليومي وحاجاتهم الضرورية. ولو كان الفقر هو (علة) العنف والإرهاب، لتفجرت في العالم قنابل مزلزلة ماحقة دونها المخزون النووي العسكري كله في الدول النووية كافة، ذلك: أن معظم سكان العالم فقراء، ويوضح

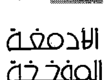
تعليل العنف بالفقر ـ بهذا الاستغراق ـ لتفجرت (قنابل بشرية إرهابية) قوامها ألوف الملايين، وفق نظرية تعليل الإرهاب بالفقر.

* تعليل العنف والإرهاب بـ (غياب الديمقراطية). وهذا ـ كذلك ـ تفسير غير صحيح بهذا الشمول والاستغراق.. فالذين يمارسون العنف والإرهاب لا يطالبون بالديمقراطية، بل يكفرون بها، ويعدونها أعظم (مفسدة) في الحياة البشرية.. يُضم إلى ذلك: أن العنف الاجتماعي والسياسي ظهر ـ مثلاً ـ في بلدان مثل: أيرلندا الشمالية، وإيطاليا. وألمانيا. وأسبانيا، والولايات المتحدة، وإسرائيل، والهند.. وهذه ـ جميعاً ـ دول ديمقراطية.. ومما لا ريب فيه: أن تحسين معايش الناس، وتمتعهم بمقادير محترمة من الحرية: طريق صحيح ومأمون من طرق العلاجات الاجتماعية والسياسية. لكن المبالغات أو التهويلات: تُضِل التفسير، وهي ـ بالتأكيد ـ ليست جزءاً من العلاج المطلوب.

* تعليل العنف والإرهاب بوجود (مناهج تعليم)[1]: تُعلم الناس هذا الانحراف.. ولو كان هذا التعليل: علمياً وصحيحاً لأصيب الخريجون كافة بهذا المرض، ولمارسوا العنف الدامي بدأب وحرص جميعاً: فوجاً بعد فوج، بمنطق: أن المقدمات الخاطئة المتماثلة، تؤدي إلى نتائج سيئة متماثلة.

جـ ـ انبنى على التفسيرين السابقين: طَرْق لطيف أو ضعيف للمنطقة الأساس لتصدير العنف والإرهاب: منطقة (الدماغ) أو الذهن والفكر، في حين أنه كان يجب أن تظفر هذه المنطقة بالاهتمام

(١) لا ينبغي لأحد أن يتخذ من هذا التعبير سنداً لدعوى عصمة مناهج التعليم من أخطاء والثغرات، فالعصمة منفية عن كل جهد بشري اجتهادي.



الأول والأعظم والأطول.

لماذا؟

لأن كل جريمة (إرادية) على الأرض، مسبوقة ـ تفكيراً وزمناً ـ بفكرة شريرة في الدماغ. فالفكر الإرهابي هو الجريمة في (مرحلتها الذهنية الجنينية). أما الفعل الإرهابي فهو (الصورة المادية) ـ المشاهدة والملموسة ـ لهذا الفكر.

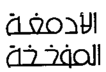
إن السيارة أو البناية (المفخخة): نتيجة تلقائية لـ (الأدمغة المفخخة).. ومن هنا، فإنه مهما اتسعت دائرة البحث عن (أسباب) العنف والإرهاب ـ وهو بحث لابد أن يكون ـ فإن سبب (الانحراف الفكري) سيظل محتفظاً بمكانته الأولى، وبتأثيره الغالب.. ومن التفكير الناجع: حسبان الغلو والعنف والإرهاب (مرضاً نفسياً وفكرياً)، يمكن أن يظهر في أي بيئة، وأن يصيب كل ذي استعداد نفسي وعقلي له.. فلقد ظهر ذو الخويصرة ـ وهو جرثومة الخوارج ونبتتهم الأولى ـ في عهد النبوة، وظهر الخوارج في صورتهم الكبيرة العنيفة في عهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكلا العهدين كان فيه من العدالة والصلاح، والرشد، والمناخ الطيب ما لا يسمح ـ في سياقه العام ـ بوجود ظاهرة الغلو والعنف، ولكنها وجدت كحالة مرضية شاذة.

٢ـ تتنوع المدارس الإعلامية في الأداء والإخراج ومناهج التحليل والتفسير، وطرائق الإخبار ـ انتقاء وترتيباً على الأقل ـ بيد أنه مهما انداح مجال التنوع والاختلاف الاجتهادي بين هذه

المدارس، فالاتفاق منعقد - من حيث المبدأ - على (حق الناس أو الجمهور في المعرفة الإعلامية الصحيحة) التي لا يكتنفها تحريف أو غش بسبب الجهل أو تعمد التزييف.

ويمكن القول: إن الإعلام العالمي - في معظمه - لم يكن موضوعياً - لا بمعيار المهنة، ولا بمعيار الخلق - وهو يخبر عن العنف ويفسره ويرده إلى مصادره أو مظانه. فعقب قارعة سبتمبر التي قرعت أمريكا، كثف الإعلام في العالم، أو معظمه، بثه وضوءه على هذه المقولة: «إن الإسلام والمسلمين هم مصدر العنف والإرهاب».. واستندت هذه المقولة إلى أن فاعلي جريمة سبتمبر هم مسلمون.. نعم. ثمة أصوات لم تعمّ التهمة، لكنها أصوات قليلة بالنسبة إلى الأصوات الأكثر عدداً، والأعلى صخباً.. وليس راشداً ولا أميناً ولا صادقاً مع الله من ينفي - بإطلاق - أن في المسلمين من يمارس العنف والإرهاب.. لكن (حصر العنف) في المسلمين يضم: إلى خطيئة فقدان الحيدة الإعلامية: خطيئة الكذب والافتراء والغش المتعمد للرأي العام العالمي. ذلك أن من الحقائق السياسية والفكرية والاجتماعية المعاصرة: أن المصدر الأكبر للعنف والإرهاب هو: الغرب (مع الاحتفاظ بالاستثناءات والبراءات العاصمة من التورط في خطيئة الكذب والتعميم).. فحركات العنف الأربع الكبرى إنما نبتت في الغرب وهي: الحركة الصهيونية، والحركة الشيوعية[1]، والحركة الفاشية..والحركة النازية.. ثم إن حركات وجماعات العنف والإرهاب التي ظهرت في البيئة الغربية

(١) من الأمانة العلمية: الشهادة بأن ليس (كل) شيوعي عنيفاً.



من بعد ومارست الاغتيال، والتفزيع، والتخريب: يستحيل نكرانها، كما يستحيل وصفها بأنها عربية وإسلامية.

٣ـ بالاستقراء المنهجي، تبين: أن الإسلام هو الدين أو المنهج الأول، والأعلى صوتاً ضد العنف والإرهاب. ذلك أن المنهج الذي يقيم الأمر كله على الرحمة. والرفق، واللين، والحكمة، والحسنى، والسلام، لا يمكن أن يهادن العنف، أو يواطنه، أو يستعين به في تحقيق مقاصده.. هذه حقيقة حلوة جميلة، أبعدتها عن الأعين: حقيقة أخرى مرة جداً وهي: حجب الحقيقة الحلوة الجميلة عن الرأي العام العالمي، وعن نخبه المعتبرة المؤثرة.

والمسؤول عن هذا التقصير المدمر هم علماء المسلمين ـ إلا من تاب وبيّن وأصلح ـ ونخب العالم الإسلامي من مفكرين ومثقفين وفنانين وإعلاميين.

***

الكتاب (أبقى) من المقال، إلا إذا صار المقال كتاباً، فيبقى عندئذ بقاء الكتاب.

أهذه حكمة؟

ربما.

وبحسبانها حكمة. كان هذا الكتاب الذي هو (جماع) مقالات نشرت في جريدة (الشرق الأوسط). وتفرقت على مدى زمني طوله سنوات عشر.

وعلى الرغم من أن كثيراً من المقالات، كان مدخله (حدثاً) له

إبّانه، فإنه قد روعي ـ عند الكتابة ـ أن تتخطى المضامين: الحدث، بأربع: بتأصيل المنهج.. وباستحضار عبرة التاريخ.. وباستنباط الواقع.. وباستشفاف المستقبل الآتي واستكشافه.

لقد برّح بنا الشوق إلى (عالم إنساني).. يعمل فيه الناس، ويكدحون، ويعمرون الأرض، ويعبدون ربهم، ويتعارفون، ويتعاونون، ويبدعون، ويسيحون، ويتنقلون دون خوف أو تفزيع، أو ترويع.. عالم إنساني: يلعب أطفاله، ويرتعون، ويمرحون، وهم مفعمون أمناً وطمأنينة وحبوراً.

تعالوا نبني هذا العالم الهادئ الآمن بما قل وكثر من العمل والتفكير والتعبير بالفكرة الرضية الندية.. وبالكلمة الداعية إلى الله اللطيف الودود السلام، وإلى العدل والإنصاف والاعتدال.. وبالسلوك المتسامح.. وبالفعل الرفيق المسالم.. وبالأدمغة النظيفة من التفكير في الإثم والعدوان، الملأى بمفاهيم السلام، والأمن، والمرحمة، ومحبة الخير والأمن للإنسان: كل إنسان.

زين العابدين الركابي

الفصل الأول

ضد الإرهاب الأقرب:

في الزمان والمكان

النبي..
أعلى الناس صوتاً ضد
الغلو والعنف

مسؤولية النبوة ووظيفتها الأولى: (تبيين الحق) بياناً مفعماً بالوضوح والدقة والكمال والجمال.. و(تبيين ما يضاد الحق) ـ كذلك ـ . ولقد أدى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ هذه المسؤولية تماماً على الذي أحسن، فبيّن التوحيد، وبيّن ما يضاده وهو الشرك.. وبيّن الحلال، وبين ما يضاده وهو الحرام.. وبيّن الاستقامة، وبيّن ما يضادها وهو الانحراف.. وبيّن اليسر والرحمة والاعتدال واللين والرفق، وبيّن ما يضاد ذلك وهو **التشدد والقسوة والغلو والغلظة والعنف... والنقطة الأخيرة هي موضع الشاهد، ومحور المقال وعماده وهدفه.**

إن من مقاصد الدين المنزّل على النبي كسر أغلال التشدد والغلو، وتحريم العنف وإبطاله، ونقضه... والبحث العلمي الجاد النزيه عن سبل مواجهة العنف موعود بالإسلام وملاقيه، فالإسلام بكّر بتجريم أول عنف دموي شهدته الأرض، وصدمت به الأسرة البشرية الأولى، وهو (عنف قابيل).

الشرق الأوسط: ١٧/٥/٢٠٠٣، وهذه المقالات كلها نشرت في جريدة الشرق الأوسط وفق التواريخ المثبتة في هامش كل مقال.

نقرأ ذلك في نبأ ابني آدم في سورة المائدة.. ولم يكن الأمر نبأ مفرداً، بل تبع ذلك وعززه منهج كامل يجرّم العنف ويحرّمه ويعالجه بجهاد فكري موصول، وبتشريع تربوي وسلوكي وقضائي.

ولذا، كان النبي أعلى الناس صوتاً ضد الغلو والعنف، فبينما كان يعرّف الناس بالله ويحببهم إليه، ويحفزهم على التدين الأوّاب، كان ـ في الوقت نفسه ـ يرصد منابت الغلو والعنف وصوره، فيسارع إلى كبتها وردعها، مفرقاً فرقاناً تاماً ما بين شذوذاتها المتناقضة مع الدين، وبين السلوك الديني السوي المعتدل الرفيق الذي يرتضيه الله ويحبه ويثيب عليه.

ما البرهان على أن النبي كان أعلى الناس صوتاً ضد الغلو والعنف؟

١ـ برهان أنه كان أعلى الناس صوتاً ضد التشدد والغلو، وهو برهان قوامه طائفة من الأحاديث، منها:

أ ـ **«وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين».**

ب ـ **«هلك المتنطعون.. هلك المتنطعون.. هلك المتنطعون»..**
والمتنطعون هم المتشددون الخارجون عن منهج اليسر، جهلاً أو هوى من عند أنفسهم.

جـ ـ **«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».**

٢ـ برهان أنه كان أعلى الناس صوتاً ضد العنف. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

أ ـ «من أعطي حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق، حرم حظه من الخير».

ب ـ «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

جـ ـ «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».. وجماعة العنف وهم يمارسونه، كأنهم يعتقدون أن الله عنيف يحب العنف، ويعطي على العنف ما لا يعطي على الرفق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتقدست أسماؤه وصفاته.

د ـ «من حمل علينا السلاح فليس منا».

هـ ـ «من سل علينا السيف فليس منا».

و ـ «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً».

ز ـ «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه».. وإذا كانت الإشارة بالحديدة تجلب اللعنة، فكيف بمن يفجر البنايات ويقتل من فيها بالجملة؟!

٣ ـ برهان أنه كان أعلى الناس صوتاً ضد الذين (يتدينون) على منهج منحرف، ولا يتورعون عن استحلال الدماء المعصومة.. وقد كان هؤلاء (متدينين) ـ في كم العبادة وصورها ـ وشهد لهم النبي بهذا الكم العبادي الذي لم يغن عنهم شيئاً بسبب شرودهم عن المنهج الحق.. ولقد رفع النبي صوته عالياً ضد هؤلاء فقال: «يخرج قوم من أمتي، يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم

تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».

ومن أوصافهم - في الأحاديث النبوية أيضاً -: « سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز إيمانهم حناجرهم».

ومن صفاتهم: أنهم يحملون السيف على أمة محمد، ويستحلون الدماء المعصومة. وكان منهم عبدالرحمن بن ملجم الذي قتل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، ويتقرب إلى الله زلفى، إذ كان كثير الذكر!!

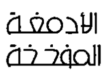
هذا هو صوت النبي العظيم قد ارتفع عالياً ضد الغلو، وضد العنف، ذلك أن هاتين النزعتين مناقضتان لمقاصد الإسلام في اليسر والرحمة والاعتدال واللين والرفق.

ومن هنا، ندرك أن نقض الغلو والعنف ورفع الصوت عالياً: إنكاراً وتجريما لهما (سنة ماضية) سنها النبي، وهي سنة واجبة الاتباع والأداء أبداً، إذ لم يخل مجتمع مسلم - في التاريخ الإسلامي كله - من اتجاهات الغلو والعنف.

ولكن لماذا تخلف ورثة النبي - وهم العلماء والدعاة - عن سنة النبي، فخفتت - من ثم - أصواتهم؟

قبل الجواب عن هذا السؤال يتعين إيراد ملحظين:

الملحظ الأول هو: لابد من اجتناب التعميم، فالتعميم خطأ منهجي من جهة، ويتضمن ظلماً في الحكم من جهة أخرى.



الملحظ الثاني: أن المقصود بـ (خفوت الصوت) هو: الانقطاع والغفلة، وضعف النبرة، وليس المقصود أن الساحة خالية من الإنكار على الغلو والعنف.

ثمة بيانات موسمية، أو بيانات بالمناسبة، تصدر وتستنكر وتجرم الغلو والعنف بين الحين والآخر.. وليس منصفاً ولا أميناً من يقلل من أهمية هذه البيانات التي تصدر عن علماء هذا البلد أو ذاك. فالناس محتاجون ـ جد محتاجين ـ إلى معرفة الحكم الشرعي فيما ينزل بالأمة من كرب وبلاء وفتن.

بيد أن الأمر أعقد وأفدح وأخطر من أن تعالجه بيانات المناسبات.

إن المطلوب ـ بالضبط، وباستمرار ـ هو (الجهاد العلمي الدائم)، و(النضال الفكري المستمر)، و(المطاردة اليومية المتجددة) للأفكار والمفاهيم المنحرفة عن الدين، والمنحرفة به.. المطاردة اليومية المتجددة لهذه الأفكار والمفاهيم، في أي صورة تبدت، وعلى أي منبر بثت، وفي أي وسيلة إعلامية نشرت.. وموجبات هذه المطاردة ومقتضياتها هي:

أولاً: بينما فكر الغلو والعنف ينمو باطراد، فإن فكر الاعتدال يذبل، أو يجمد عند نقطة معينة، أو ينقطع، فلا يطرد في الزمن. وهذا تعاكس يبتلي الأمة بمزيد من البلاء.

ثانياً: أن الأمة لا تكاد تفيق من فتنة حتى تقع في أخرى بسبب هذا الفكر. فعلى مدى القرنين الثالث عشر الهجري والعشرين

الميلادي، وفي مطلع الرابع عشر والحادي والعشرين، شهد الوطن العربي والعالم الإسلامي فتناً عاصفة، انتحلت صفة الدين. وكان من صورها: التكفير.. والقتل.. والاقتتال.. والاغتيال.. وانتهاك حرمة المقدسات.. وتفجيرات الإفساد في الأرض. وأياً كانت أسباب استمرار هذه الفتن، فأحد أسبابها ـ بلا شك ـ هو (تقصير العلماء)، ولئن وقع التقصير آنفاً، فلا يحل أن يتمدد في المستقبل.

ثالثاً: لو كان الوحي يتنزل، أو لو بعث نبي جديد، لتحدث ـ بالتجريم المغلظ ـ عن (الفساد في الأرض) الذي حدث في مدينة الرياض في السعودية يوم ١٢ مايو (آيار) ٢٠٠٣. فالجريمة كاملة البشاعة والضرر. ولقد جرّم الإسلام ـ حين كان ينزل القرآن ـ ما هو أدنى منها: حجماً ونوعاً وأثراً، ولكن لا وحي بعد القرآن، ولا نبي بعد خاتم النبيين.. والمنهج موجود، وهو منهج نيطت مهمة تبيينه بالعلماء: التبيين المطرد المتجدد، لا التبيين المرافق لوقوع الفتنة فحسب.

رابعاً: حين تكون (الفتنة عسكرية)، تنصب المسؤولية على الجيوش المسلحة. أما حين تكون (الفتنة فكرية)، فالكتيبة التي يجب أن تكون في الطليعة هي: العلماء الثقات، والمفكرون المعتبرون.

خامساً: أن للعنف (طورين): العنف في طوره المجسم، أو (صورته المادية). والذي يتولى هذه المهمة، في هذا الطور هم رجال الأمن والقضاء، ولا نخوض في هذا، لأنه ليس من شأننا.. والطور الثاني هو (العنف في صورته الذهنية أو الفكرية)، وهو طور

يسبق ـ بالضرورة الموضوعية، والزمنية ـ الطور المادي.. ومعالجة العنف في صورته الفكرية مهمة العلماء والمفكرين، ولا نقول الإعلاميين، فإن كثيراً منهم لا يحسن التفكير، ولا التعبير ـ في هذه القضية الشائكة ـ فيزيد النار وقوداً.

هذه هي المسؤوليات التي ينبغي أن تؤدى أداء ولا تقضى قضاء... لماذا حدث (التقصير الشديد) فيها؟.. هناك جملة من الأسباب، من بينها:.

١ـ (فتور الهمة).. وهذا من المعايب الجسيمة في حق العلماء. فما ينبغي لعالم يحمل رسالة (تبيين الحق وما يضاده) أن يكون فاتر الهمة.

٢ـ التأويلات غير المستساغة مثل:

أـ أن الشباب الذين يحملون فكر الغلو والعنف هم حسنو النية.. وهذا كلام لا يليق أن يصدر عن عالم، فإن منهج الإسلام قد قضى بأن حسن النية لا يغني عن صحة المنهج الذي تعبدنا الله به، وليس بديلاً له على كل حال. ولم يقل أحد: إن الخوارج السابقين كانت نياتهم سيئة. ومع ذلك حكم النبي على منهجهم بالزيغ والضلال.

ب ـ أن النقد العلني لحاملي فكر الغلو والعنف يعين (العلمانيين والفاسقين) عليهم!!.. وهذا كلام مردود. فالضائقون بالإسلام ـ التواءً أو جهلاً ـ لا يسرهم شيء مثل أن يلصق بالدين ما يشوهه، فإذا سكت العلماء عن مقابح الغلاة فإنهم يقدمون ـ بذلك ـ أعظم

خدمة للضائقين بالدين. ثم إن هذه المقولة متهافتة أو منقوضة من أساسها.. فقد كان هناك مشركون ومنافقون وأعداء كثر يتربصون بالإسلام، ومع ذلك استفاض القرآن في تقويم أعمال النبي، ونقد بعض مسالك الصحابة. ولو كانت مقولة (المتساهلين مع الغلاة صحيحة لما عمد القرآن ـ باستفاضة ـ إلى تقويم أعمال النبي، ونقد تصرفات صدرت عن أصحابه.

لابد من (الجهاد العلمي والفكري) الناجز والدائم.. ولسنا يائسين من جدوى الحوار والإقناع. فهناك من يقول أن مصدر الغلو والعنف في هذا الإبان القريب هو فكر (الجماعة الإسلامية) في مصر.. وهذا المصدر نفسه حدث فيه تراجع واعتدال، إذ أعلنت هذه الجماعة (توبتها) بعد حوار موسع ومقنع.. ومما يدل على توبة هذه الجماعة امتناعها عن العنف، وتأصيلها لهذا الامتناع بقولها: «غاية الدعاة: تحبيب الناس في ربهم، وسوقهم إلى صراطه المستقيم بأسهل وسيلة وأيسر أسلوب، أما الحسبة والجهاد فهما وسيلتان لتعبيد الناس لربهم. والغاية مقدمة على الوسيلة، فإذا تعارضت الغاية مع الوسيلة، قدمت الغاية».. إلى غير ذلك من دلائل التوبة، والرجوع إلى الحق، وهذا نموذج مشجع، ولكنه مشروط بنهوض العلماء والمفكرين بمسؤولية الجهاد العلمي والفكري: الصائب والدائم.

مصادر (العنف) الذاتية:
تحريف (مفهوم الجهاد)

عصم الله النص القرآني
من التحريف
فعمد الغلاة
إلى تحريف المعنى

نبدأ بـ (سطور في المنهج).

والداعي إلى ذلك: أن مثل هذه القضايا لا تحسم، أو لا يرفع فيها الخلاف العقيم الزنيم إلا بالمنهج، وأن هذا المقال نفسه: تطبيق على المنهج والتزام به: في التفكير والتعبير والمرجعية.

أـ أول سطر هو: (عمومية الجهاد في الجنس البشري). فلكل أمة (جهادها) ـ بمعنى القتال ـ فلم تخل أمة في التاريخ البشري القديم من جيش مقاتل.. وفي عصرنا الراهن: هناك أكثر من ١٩٠ وزارة دفاع، بمعنى وزارة دفاع لكل أمة عضو في الأمم المتحدة.. وليس من المنهج العقلي والواقعي في شيء: أن يجرد المسلمون وحدهم ويحرموا من هذا الحق: حق وجود قوة تدافع عن وجودهم المعنوي والمادي، كما يفعل سائر البشر الذين تنص دساتيرهم على هذا (الحق الطبيعي)، وعلى أن رئيس الدولة هو القائد الأعلى للقوات المسلحة.. وهذه القوات المسلحة ليست أسراب حمام دربت على التغريد اللطيف الجميل، بل هي جيوش دربت على القتل والقتال من أجل هذا الهدف أو ذاك (آخر المعلومات في هذا الميدان تقول: إن مجلس

بتاريخ ٢٤/٥/٢٠٠٣م.

الشيوخ الأمريكي وافق على إنتاج قنابل ذرية صغيرة تعادل كل ثلاث منها: القنبلة التي ضربت بها هيروشيما في اليابان).. ومن هنا يتأكد: أن (مبدأ الجهاد) - بمعنى القتال للدفاع - هو مبدأ معقول، ومتقبل وواقعي من حيث الأصل. وفي ضوء هذه الحقيقة البشرية العامة، ليس لائقاً ولا كريماً: أن يتحدث المتحدثون عن الجهاد في الإسلام بلغة الاعتذار والانكسار والتنصل. صحيح أن خطايا كثيرة وجسيمة ألصقت بالجهاد في التاريخ، والواقع الراهن، وتجب البراءة منها، لكن سوء التطبيق لا يلغي المبدأ الصحيح، كما يتضح ذلك من السطر الثاني الآتي:

ب - السطر الثاني هو: طرد المنهج وشموله - دون انتقاء - إيجاباً أو سلباً. فالمبدأ الصحيح: إما أن يهجر بسبب سوء الفهم والتطبيق، وفي هذه الحال، لن يبقى مبدأ سليم قائم في حياة البشرية : لا مبدأ ديني، ولا قانوني، ولا سياسي، ولا علمي ولا اقتصادي. فهذه المبادئ قد أسيء فهمها وتطبيقها إساءات ترتب عليها: إراقة دم، وظلم، واستغلال، وأسلحة دمار شامل، وتلاعب في صناعة الأدوية، وإفقار بالجملة.. إلخ، وإما أن يظل الأخذ بالمبدأ الصحيح قائماً، وفي هذه الحال يتعين أن يكون المنهج شاملاً، بمعنى أن يتاح لكل أمة الدفاع عن وجودها وحياتها ومقدراتها. والمسلمون أمة من أمم الأرض.

جـ - السطر الثالث في المنهج: أن هذا الحق الطبيعي البشري العام للمسلمين قد التاث بما يمرضه ويقبحه وينفر منه. فقد (حرّف مفهوم الجهاد عن مواضعه) تحريفاً جاهلاً غبياً منكراً.. لا ريب في أن الله تعالى قد عصم النص القرآني من التحريف والتبديل، ولئن عجز مسلمون

متنطعون جهال عن تحريف (الكلم عن مواضعه)، فإنهم لم يعجزوا عن (تحريف المعاني والمفاهيم عن مواضعها).. فمنهم من حرف معنى التوكل فجعله نقيضاً للأسباب.. ومنهم من حرف معنى الجماعة فأخرج سائر المسلمين من جماعة الإسلام التي هي جماعته وحده!! ومنهم من حرف معنى الإيمان فأطلق لسانه بتكفير المسلمين.

ومنهم من (حرف مفهوم الجهاد) فجعله بطشاً فاجراً، وفتنة عمياء تلغ في الدماء المعصومة، وتخريباً ودماراً وفساداً في الأرض، وتحريضاً على كراهية الإسلام وأمته، وترجيحاً للمفسدة على المصلحة، وفوضى تصادم كل نظام كوني وتشريعي.

وتحريف مفهوم الجهاد هو مناط المقال وموضوعه.

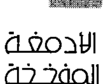
كنت في ندوة مختصرة، تتحدث عن (موارد الدولة المسلمة)، ولم تكد الندوة تبدأ حتى علا وساد صوت يقول - بثقة ويقين -!!: «إن أول وأعظم وأهم مورد اقتصادي للدولة المسلمة هو: الخراج، ولذا فإن الجهاد لا ينبغي أن يتوقف لحظة واحدة لأن توقفه يعني تجفيف أهم مورد لميزانية الدولة المسلمة وهو الخراج»!.

والمعنى المباشر لهذا الكلام عن الجهاد والخراج: تبني التفسير الماركسي للتاريخ والحركة البشرية، وهو تفسير لا يبرح يؤكد أن للسعي البشري (بعداً واحداً) هو البعد الاقتصادي المادي، بما في ذلك: سعي الأنبياء والحواريين والقديسين!!.. والمعنى المباشر لهذا الكلام - من زاوية أخرى -: أن الدولة الإسلامية هي (دولة استعمارية) هدفها: الاستيلاء

على خيرات الأمم ومقدراتها، بدليل أن هذه الدولة المسلمة لا تستطيع أن توفر لأتباعها الضرورات والرفاه إلا عن طريق مورد الخراج.. وهذه مفاهيم تترجم (أمّية) في اقتصادات الدولة المعاصرة، وتترجم كذلك (أمّية) في مقاصد الإسلام.. قد يترتب على الحرب أو القتال (مكاسب مادية) ـ وفق العرف الدولي في أي عصر ـ ولكنها مكاسب (ضمنية) غير مقصودة بمقياس الجهاد أو القتال في الإسلام، لأن الهدف الأعلى للجهاد هو: تجريد النية لله، وإعلاء كلمته تجريداً لا يشوبه (غرض دنيوي).. وهذا هو البرهان: جاء أعرابي فسأل النبي فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل حميَّة، والرجل يقاتل غضباً، فمن في سبيل الله؟ فقال النبي: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**».. وفي بدر، حين جعل الناس (الأنفال) ـ أي الغنائم ـ قضية متقدمة، ردهم القرآن إلى (القيم الأساسية والهدف الأعلى) وهي: الإيمان، والتقوى، والطاعة، والذكر.. ووحدة الصف وفق ذلك كله.

وفي أحد، نزلت الهزيمة بالمسلمين، حين أغرت الغنائم بعضهم فخالفوا المنهج: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.

ومنذ قريب سمعت رجلاً داعية يقول: «معنى الفيء: أن الأصل في المال هو للمسلمين، ولذلك يجب أن ينتقل من الطارئين عليه، أي غير المسلمين إلى أصحابه الأصلاء، وهم المسلمون». وهذه جهالة، بل حمق، بل جنون. فالله ليس هو رب هذا المتكلم فحسب، بل هو رب غير المسلمين



كذلك: رب اليهودي والنصراني والوثني والملحد، رب كل إنسان. ولقد تجلى الرب على البشر الذين خلقهم بصفة الربوبية فأمدهم ـ جميعاً ـ بعطائه الجزيل: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾.. وبمقتضى مقولة: إن أصل الأموال والخيرات للمسلمين، وإنها يجب أن تفيء أو تعود إليهم، يجوز أو يحل نهب أموال غير المسلمين وسرقتها واغتصابها ومصادرتها، وعلى هذا يمكن لمسلم حاسد طامع ـ مثلاً ـ: أن يستولي على بيت فخم جميل لإنسان غير مسلم، وحين يقاضيه صاحب البيت يدعي: أن أصل الملكية له هو لا لصاحب البيت!!.. أي تفكير تافه.. أي جنون.. أي انحطاط خلقي هذا؟!.. إن هذه المفاهيم الفوضوية انحرفت بمقاصد الجهاد الصحيح انحرافاً انبنى عليه: نظر فريق من المسلمين إلى (الغير) وكأنه (خلق طارئ) على الكوكب يجب أن يطرد وأن يخلو وجه الأرض منه. وهذه النظرة هي الدافع إلى (الدعاء البدعي) بأن يهلك الله غير المسلمين ويستأصلهم، وهذا من العدوان في الدعاء، لأن الله لم يرد هذا الاستئصال، ولم يفعله.

ومن التحريف القبيح البواح لـ (مفهوم الجهاد): جعله (عنفاً)، أو (قوة قصوى للإبادة)، ليس لإبادة الحشرات، بل لإبادة البشر: مسلمين وغير مسلمين، وفرق ضخم هائل بين (القتال المشروع) وبين (العنف المحرم)، فالقتال الدفاعي المشروع مضبوط ـ علمياً وتطبيقياً ـ بمنهج توقيفي، ومقاصد معلومة، ومصلحة راجحة، وحاكم مسؤول، وأخلاق ملزمة.. ومن هذه الأخلاق: الامتناع التام المستمر عن قتل المدنيين الآمنين، وعن

التخريب والتدمير.. أما العنف فهو بطش أعمى، وعدوان أثيم، واستباحة للأنفس التي قضى الله بأن قتل واحدة منها قتل لها جميعاً.

المفهوم الحق للجهاد

حين يعمد أناس إلى تحريف مفهوم الجهاد، فإن الأولوية الناجزة هي: رد المفهوم إلى (موضعه الصحيح).. إن للجهاد أو القتال الدفاعي المشروع ـ لكل البشر ـ شروطاً منهجية وعلمية وتطبيقية، لا يصح إلا بها ـ في دين الإسلام ـ. وهذه الشروط هي:

١ـ أن قاعدة العلاقات بين الأمم البشرية هي (السلام) لا الحرب، وأن هذه القاعدة مسبوقة بأصل أرسخ وهو: أن الدم الإنساني معصوم من الاستباحة والإهدار والقتل.

٢ـ أن القتال يجب أن يكون ضرورة ملجئة، وليس هواية ولا أمنية، وأن العزيمة هي طلب (العافية)، ولقد صدع بهذا الطلب الحديث النبوي: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**».

٣ـ أن يكون القتال الاضطراري لهدف مشروع وهو دفع العدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: الذين يقاتلونكم فحسب.

٤ـ أن يكون تقدير الدفاع الاضطراري للإمام أو الحاكم المسؤول، فلا يصح جهاد أو قتال ـ بالمعنى الإسلامي المشروع ـ إلا وراء إمام أو حاكم، قال النبي: «**الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجر كله. وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة، وعصى الإمام،**

وأفسد في الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف».

٥ـ ألا يكون الجهاد: حرب عدوان، ولا تزيّداً على ضرورة الدفاع حتى ولو كان التزيد ممكناً: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**.

٦ـ ألا يكون إكراهاً على الدين: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾**.

٧ـ ألا يكون للعلو والإفساد في الأرض: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**.

٨ـ أن تكون فيه مصلحة محققة أو راجحة، وإلا فلا: **﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾**.. يقول الشوكاني: «الحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو في الدنيا داخل في هذا».

٩ـ ألا يكون خفراً (أي نقضاً لعهد الأمان) حتى وإن تعهد بالأمان مسلم واحد. فكيف إذا تعهدت الدولة المسلمة؟ قال النبي: «**وذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**».. يقول الحافظ بن حجر العسقلاني: «ذمة المسلمين واحدة، أي أمانهم صحيح، فإذا أمَّنَ الكافرَ واحدٌ منهم حرم على غيره التعرض له»..

وتبّاً تبّاً لمن توعده الرسول باللعنة بسبب نقضه لعهد الأمان لغير المسلمين.

١٠ـ ألا يكون الدافع إليه غضباً أو ثأراً جاهلياً، فلا يحل لأحد أن يجعل الثأر الجاهلي (جهاداً إسلامياً)، ولذلك ترك الإمام علي كرم الله وجهه خصمه ولم يقتله وهو قادر عليه حين بصق هذا الخصم في وجه الإمام، وخشي الإمام أن يكون قتل هذا السفيه المتطاول

حمية جاهلية وثأراً جاهلياً، يحبط الجهاد.

١١ـ ألا يفضي الجهاد أو الدفاع المشروع إلى استباحة دماء المدنيين الآمنين، وإهدار حياتهم وأمنهم، وإلى تخريب العمران ودماره: من قطع أشجار وتحريق مزارع، وتعطيل بئر، وتهديم سكن، وعدوان على بهائم!!

ومما لا ريب فيه: أن التفجيرات في الرياض[١] وغيرها قد مرقت من هذه الشروط مروق السهم من الرمية.. نعم، لقد مرقت من قواعد: أن الأصل في العلاقة بين البشر هو السلام لا الحرب. وأن العزيمة هي طلب العافية لا تمني لقاء العدو. وأن القتال للدفاع لا للعدوان. وأن الجهاد لا يصح إلا بإمام. وأنه محرم أن يكون إفساداً في الأرض، وأنه لابد أن تكون فيه مصلحة راجحة، وأن من نقض عهد الأمان ملعون، وأن الثأر الجاهلي لا يكون جهاداً بحال، وأن الجهاد الشرعي مشروط بصيانة دماء المدنيين الآمنين، وبالحفاظ على العمران.

في ضوء هذه (المروقات) عن شرع الله، يصبح من الكذب على الله ورسوله: تسمية هذا الإفساد في الأرض: جهاداً في سبيل الله. فويل للذين يحرفون مفهوم الجهاد عن مواضعه، ثم يقولون: هذا من عند الله، ويل لهم مما قالوا وكتبوا، وويل لهم مما يكسبون، وعلى كل حال فإن باب التوبة مفتوح دوماً: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأولى مراتب التوبة وأعجلها: الإقلاع عن المفهوم المنحرف للجهاد.

(١) بتاريخ ١٢/٥/٢٠٠٣، وما تلا ذلك من محاولات إفساد في الأرض، امتدت إلى مكة.

وتحريف مفهوم
الآية الموصوفة
بـ (آية السيف)

تبين ـ فيما مضى من كَلِم ـ : عدد من مصادر (تحريف مفهوم الجهاد) في الإسلام.. ومن تمام العلم بهذه القضية: تخصيص هذا المقال لمصدرين آخرين كبيرين من مصادر هذا التحريف وهما:

أ ـ مصدر (التأويل الفاسد) لما عرف بـ (آية السيف) وهي: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ب ـ مصدر الدعوى العريضة بأن هذه الآية نسخت أكثر من ١٠٠ آية من آي القرآن!!

والتأويل الفاسد، ودعوى الإسراف في النسخ، يتوخيان غاية واحدة هي: أن الأصل في العلاقة مع غير المسلمين هي: السيف والحرب والضرب، وأن كل ما ورد في القرآن من أخلاق العفو والغفران والصفح والصبر والبر والقسط والتسامح في التعامل مع (الغير) أو (الآخر).. ذلك كله منسوخ بآية السيف.. ومعنى

بتاريخ ٣١/٥/٢٠٠٣م.

النسخ هو: إلغاء حكم وتعطيل العمل به، وبموجب هذا المعنى، يصبح التعامل مع غير المسلمين بالبر والقسط والتسامح وعدم الإكراه في الدين، حكماً معطلاً وقيمة ملغاة.. والبديل الضروري المقابل هو: الجفاء والجور والعنف والإكراه في الدين، مع ما يستتبع ذلك ـ بالضرورة ـ من إشهار للسيف على الدوام، وتسعير القتال والقتل أبداً.

وينبغي التقرير ـ بادئ ذي بدء ـ أن مبدأ النسخ مقرر غير منفي ولا منكور.. ولقد تبدى بإزاء النسخ، في تاريخ المسلمين وتراثهم: اتجاهات ثلاثة: اتجاه ينفي النسخ بإطلاق، وهو اتجاه قليل الوزن، ضعيف الحجة. ففي القرآن آيات صريحة تفيد النسخ.. الاتجاه الثاني هو الذي يقول بالنسخ بغير إسراف ولا اعتساف.. أما الاتجاه الثالث فهو الذي أسرف في النسخ إسرافاً عطل به عشرات الآيات القرآنية، وألغى قيمتها ومفعولها.

وعن الاتجاه الأخير نتحدث الآن.. ولما كان التأويل الفاسد للآية الخامسة من سورة التوبة منبثقاً من مزاعم نسخها لعشرات الآيات، فإن المنهج يقتضي رد دعوى النسخ، وبردها يبطل التأويل الفاسد لها بداهة.

١ـ قال قائلهم: إن آية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ منسوخة بآية السيف، وهو قول مبني على فرضية مسبقة وهي «افتعال التناقض» بين آية نفي الإكراه في الدين هذه وبين آيات القتال..

والحقيقة أن ليس بين الآيتين تعارض ولا تناقض. فآية نفي الإكراه في الدين: تقرر حقيقة غير قابلة للنسخ وهي: أن الإيمان بالله ـ وهو أصل الدين ومنبعه ـ يقوم على الاقتناع الحر والاختيار الحر.. وهذه الحقيقة إذ تنتظم إعلاء قيمة إرادة الإنسان ومسؤوليته، فإنها تنتظم حكمة عقلية وعملية جليلة وجميلة، ذلك أن الإكراه لا يمكن أن يثمر إيماناً قائماً على الرضى والحب. فإذا أقر الإسلام الإكراه في الدين، فإنه ـ بذلك ـ يشجع على النفاق على أوسع نطاق. فالمكره يتظاهر شكلياً بالموافقة والمسايرة، ولكنه ـ في هذه الحالة ـ يلعن الإيمان ويسبه بقلبه وضميره.

ثم إن جوهر الإيمان هو محبة الله جل ثناؤه، ومستحيل أن تنشأ المحبة وترسخ في قلب مكره على الإيمان. يُضم إلى ذلك: أن كل عقد يتم بالإكراه هو عقد باطل في شريعة الإسلام، سواء أكان عقداً عادياً: كعقود التجارة، والعمل، والزواج، أم كان العقد الأعظم بين الإنسان وربه.. هذا هو مفهوم آية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ومضمونها ومقصدها.. أما آية إيجاب قتال المعتدين من مشركين وغيرهم فهي تقرر حق المسلمين في رد العدوان والدفاع عن النفس والحمى.. مثلاً آية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا تدل بالصراحة، وبالإيماء، لا من قريب، ولا من بعيد، على إدخال الإيمان في نفوس الناس بالغصب: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وبالمناسبة، فإن قوماً

زعموا ـ كذلك ـ أن الآية الأخيرة نسخت بآية السيف.. أما الراسخون في العلم فلا يخبطون هذا الخبط في كتاب الله. ومن هؤلاء ابن كثير الذي قال في تفسير آية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً».

٢ـ وقال المسرفون في نسخ آيات القرآن بآية السيف: إن آيات ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾. و﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾. و﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.. هذه الآيات منسوخة بآية السيف.. وهذه كارثة عقلية وعلمية. ذلك أن نفي سيطرة النبي على الناس يعني: أن الله بعثه للتسلط عليهم وقهرهم. وليس هذا من صفات النبي: الجبلية، ولا الدينية.. ونفي: أن يغفر المؤمنون لغير المؤمنين: ادعاء عريض وباطل بأن خُلُق التسامح لازم مع المسلمين، لا يتعداهم إلى غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام.. يضاف إلى ذلك: أن هذا المنزع العجيب الغريب رد لسنة النبي الذي كان يقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».. وقومه يومئذ مشركون.. وبهذا يتضح أن الغفران لغير المسلمين: فرع عن خلق أسمى وأرحم وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم، على ما كان منهم من أذى. فقد جهر

النبي بهذا الدعاء الكريم الرحيم بُعيد أن شج المشركون وجهه، وكسروا رباعيته في أحد.. واللازم الضروري لنسخ صفة «جبار» هو: أن الرسول «جبار» على الناس - بمقتضى مفهوم المخالفة -.. وهذا تقوُّل على الله ورسوله.. ويزداد الأمر جهالة وشناعة حين نعلم: أن الجبارين مدموغون بالجرم - بلا استثناء - في القرآن: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. ولذلك برأ الله النبيين من هذا السلوك المقبوح، فقدم يحيى في هذه الصورة المبرأة من التجبر: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، وأنطق عيسى وهو في المهد ليقول: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. وفي ذات السياق، ولذات الحكمة، نفى عن النبي الخاتم صفة التجبر: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾. فالآيات السابقة - من ثم - محكمة لا منسوخة، وعاملة غير معطلة، ولئن قلنا: إن ادعاء النسخ كارثة عقلية وعلمية، فإن من توابع الكارثة: الحفز على إقامة العلاقة مع غير المسلمين على التسلط والتجبر وإراقة الدم.. وهذا منزلق إلى (فوضى الجهاد).

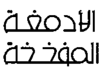
٣- وزعموا: أن آية ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ منسوخة بآية السيف. وليس ثمة نسخ قط، بل إن ادعاء النسخ يناقض المعقول والمنقول - وهما متكاملان - أما المعقول، فإنه ليس عدلاً - في منطق العقلاء - أن يتحمل إنسان لم يقترف

خطأ، تبعة إنسان اقترف خطأ.. وأما المنقول فهو قول الله تعالى: ﴿لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.. لكن لماذا افتعلوا النسخ؟ لأنهم يريدون أن يقولوا: إن المسلمين يتحملون تبعة أعمال غيرهم. وبموجب هذه التبعة أو المسؤولية يتعين عليهم: أن يغيروا الأعمال التي يتحملون تبعتها: بالإكراه والجبر والسيف!.

٤ـ وادعوا أن آية الممتحنة ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ منسوخة بآية السيف.. والقول بالنسخ: إلغاء للعقول التي تميز بين العدو وغير العدو في التعامل.

ومن لم يفرق بين الاثنين: أحمق غير عاقل، وسفيه غير رشيد، ولا يمكن أن يحض القرآن على الحماقة والسفه. ولقد اختتمت الآية بأن (القسط) من محبوبات الله. وما كان من محبوباته لا ينسخ. يتعزز ذلك بالتأويل الصحيح للآية. يقول ابن جرير الطبري: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم».

٥ـ وزعموا: أن آيات الصبر على التحامل والأذى والاستخفاف من مثل قوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾.. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.. ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾، زعموا أن هذه الآيات منسوخة بآية السيف.. وهذا زعم



باطل مردود بحجج ثلاث: الحجة الأولى هي: أن من منهج الرسل السابقين: أن يصبروا، وأن الرسول الخاتم مأمور بالاقتداء بمن سبقه من الرسل في منهج الصبر.. وشرع من قبلنا ملزم للرسول وأمته إذا جاء أمر بالتزامه.. والحجة الثانية: أن الصبر (سنة اجتماعية) بمعنى: أن التكاليف والعلوم والأعمال لا تنجز إلا بالصبر. وما كان سنة اجتماعية لا ينسخ.. والحجة الثالثة: أن الصبر قيمة أخلاقية عالية وعظيمة من صميم الأخلاق التي اجتمعت لنبي الإسلام، والادعاء بنسخ الصبر يتضمن الادعاء بنسخ قول الله لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

٦ـ وقالوا: إن آية السيف هي الناسخة للعهود والمواثيق، والمشخصة الناس للجهاد، أي الدافعة والمسيرة لهم لكي يقاتلوا.. وهذا كلام يتناقض مع منهج الإسلام في التعامل والعلاقات مع غير المسلمين. ومن هنا فهو مردود ببراهين ثلاثة كذلك: برهان: أن مطلع سورة المائدة نص على الوفاء بالعقود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.. وسورة المائدة آخر القرآن نزولاً. أي نزلت بعد سورة التوبة. ويستحيل أن ينسخ السابق اللاحق.. وبرهان: أن الوفاء بالعهود والعقود من عزائم الأخلاق، والأخلاق لا تنسخ، وإلا لقال الرسول ـ حاشاه ـ: إنما بعثت لأنقض مكارم الأخلاق.

وبرهان: أن سورة التوبة نفسها انتظمت آية تلزم بالوفاء بالعهود المبرمة مع المشركين غير المعتدين: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.. فمن تقوى الله ـ التي هي جماع الديانة ـ أن يوفي المسلمون المتقون بالعهود على كل حال، ما دام الطرف الآخر موفياً بها.. وعلى الضد فإن صفة التقوى تنزع عمن ينقض الميثاق، ويخيس بالعهد.

هكذا.. بادعاء نسخ آيات نفي الإكراه في الدين.. والتسامح.. والبر.. والقسط.. والصبر.. والوفاء بالعهود، بآية السيف، وبتأويل هذه الآية تأويلاً خاطئاً.. بذلك انحرف مفهوم الجهاد عن موضعه عند فريق من المسلمين، فنشأت تصورات مضطربة جداً لعلاقة المسلمين بغير المسلمين.

فأما الذين عرفوا المنهج الصحيح، واستبانوا مقاصد الإسلام وهداه في العلاقة بين الأمم، فقد سلموا من العوج الفكري في هذه القضية، وسلمت الأمة بسلامتهم العلمية والفكرية.

وأما الذين استجابوا للتصورات المضطربة، فقد أفسدوا علاقة ذات البين، وأفسدوا العلاقة مع الآخر.. ولهذا لا نبرح نقول: إن الدين للعقلاء فقط: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الإرهاب
متعدد الجنسيات:
مصادر العنف عندهم



الاحتراز، أو سد منافذ الفهم الخاطئ والقياس الفاسد، أو دفع الاستنتاج الوهمي: أمر واجب، ليس واجباً من الناحية الدبلوماسية المقتضية له، بل هو واجب ـ كذلك ـ بمقياس العدل والشهادة على الناس بالحق وتصوير الواقع العالمي بأمانة، وكما هو، لا كما تتخيله هذه الأيديولوجية أو تلك. وهذه مبادئ أو معطيات جد ضرورية في تكوين رأي عام ذي نظرة عاقلة وعادلة.

فلئن تكثف القول، وبسط الحديث ـ في مقالات أخرى ـ عن (العنف) الذي يمارسه نفر من المسلمين ـ باعترافهم هم، لا بتقول الآخرين عليهم ـ فليس يعني ذلك ـ قط ـ أن الأمم الأخرى مبرأة أو معافاة (من وباء العنف) ـ فكراً أو ممارسة ـ بل يمكن التقرير ـ بموضوعية قضائية ـ أن (البيئة الغربية) هي منبت الإرهاب الخصب، ومصدره الأكبر في العصر الحديث.

ندخل في هذه القضية من مدخل مناسبة زمنية حديثة العهد بالوعي.. ثم يفضي المدخل إلى الساحة الإرهابية الأوسع: المؤصلة

بتاريخ ٢٠٠٣/٦/٧م.

بفكر العنف، وفلسفة الإرهاب.

منذ أيام قبض على (أريك رودلف) في شمال كلورادو الأمريكية، فمن هو هذا الرجل؟.. هو الذي اقترف جرائم إرهابية عديدة، بمنطق (!!) مكافحة الإجهاض، والشذوذ الجنسي، وكان أخطر أعماله الإرهابية: التفجير في دورة الألعاب الأوليمبية في أتلانتا عام ١٩٩٦م.

وهذه ليست حادثة مفردة معزولة عن السياق العام للبيئة هناك. وإنما هي حلقة في سلسلة طويلة جداً من الإرهاب الدامي المغذى بثقافة العنف منذ عهد طويل موغل في الطول. فقبل ١٤٠ سنة ـ تقريباً ـ اغتيل الزعيم الأمريكي الشهير (إبراهام لنكولن). وقد سبق هذا الإرهاب ولحقه: أعمال إرهابية، كانت صورتها الأغلظ والأبرز: إبادة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية وهم (الهنود الحمر).. ولهذا العنف امتدادات في الأزمنة التي تعاقبت بعد ذلك. ففي الستينيات من القرن العشرين ـ على سبيل المثال ـ اغتيل (مارتن لوثر كنج)، بسبب دعوته السلمية إلى الحقوق المدنية، ومنها: المساواة بين السود والبيض.. واغتيل للسبب نفسه (مالكوم اكس).. واغتيل الرئيس الأمريكي (جون كندي) وأخوه (روبرت كندي).. يقول (دجي روبرت بلايكي) ـ كبير مستشاري لجنة مجلس الشيوخ للاغتيالات ـ: «إنني الآن مقتنع بأن المجموعات الإرهابية هي التي فعلت ذلك (اغتالت كندي).. تلك هي

الحقيقة التاريخية».. ومن الامتدادات الباقية للعنف ـ فلسفة وتطبيقاً ـ أن الولايات المتحدة تزدحم بأكثر من ١٤٠ ميليشيا تتبنى العنف: فكراً وممارسة.. وكان أحد خريجيها (ماكفاي) الذي فجر المبنى الاتحادي في أوكلاهوما..

أما ثقافة العنف العام، فقد أصبحت (وباء عاماً).. يقول (زبغنيو بريجسنكي) ـ في عالم خارج السيطرة ـ «لقد انتشرت الجريمة والعنف في المجتمع الأمريكي انتشاراً واسعاً. وما جعل الأمر أسوأ هو السهولة الغريبة في امتلاك الأسلحة الفتاكة، حيث إن المسدسات التي في حوزة الأشخاص، بل حتى في حوزة المجرمين، تزيد عما لدى معظم الجيوش في أنحاء العالم. وكان ذلك نتيجة للثقافة التي تقدمها الأفلام السينمائية والتلفزيون: الثقافة التي تشجع على العنف.. ونجم عن ذلك: نسبة قتلى تفوق أي دولة متحضرة في العالم».. ويقول ـ في موضع آخر ـ: «إن كون التاريخ الاجتماعي الأمريكي، وكذلك التاريخ السياسي الأمريكي، كان عنيفاً هو أمر لا جدال فيه.. وبالرغم من أن المجتمع الأمريكي المعاصر، قد لا يكون أكثر عنفاً من غيره من المجتمعات إلا أنه من الناحية النفسية مشبع بالعنف. إن الوضع الاجتماعي الذي يصل فيه جزء كبير من السكان إلى درجة التوحيد بين العنف والتغيير، والخلط بين النظام وانتفاء التغيير، هو وضع لا يمكن فيه تجنب تصعيد الصراع»... أكثر من هذا، هناك أمريكيون قالوا ما لم نعلم، إذ قالوا أو ردّوا العنف في السياسة الأمريكية إلى (عنف التنشئة

والتربية) منذ الصغر.. فقد صدر عام ١٩٩٦ كتاب بعنوان (سياسة الإنكار)، ألفه أستاذان في جامعة ماساشوستس ببوسطن هما (مايكل ملبورن) و(شيري كونراد) وهما ممن يعتد برأيهم العلمي في هذا التخصص.. ومما جاء في هذا الكتاب ـ الذي استعرضه الأستاذ محمد يوسف عدس ـ: «هناك ما يشبه الإجماع بين كثرة من علماء النفس الاجتماعي والسياسي: أن الأصولية الدينية وامتداداتها السياسية متمثلة في اليمين المتطرف ترجع في جذورها العميقة إلى أسلوب التنشئة القائم على العقوبات البدنية القاسية وإلى العنف وسوء المعاملة التي يتلقاها الأطفال في سنوات العمر الأولى من حياتهم.. وهذه نماذج من هذه التنشئة: بيفرلي لاهاي، زوجة القسيس تيموثي لاهاي، وهو أحد قادة حركة (مورال ماجورتي) الأصولية، ألفت كتاباً عام ١٩٧٧ بعنوان: «كيف تهذب طفلك» تحث فيه الأبوين، عند معاقبة أطفالهما، على العصيان: «أن يكون العقاب ضرباً لا رحمة فيه، ولا تردد وأن يتكرر الضرب كلما دعت الحاجة إلى عقوبة» وتنصح ألا يكف الأبوان عن الضرب إذا بكى الطفل غضباً أو غيظاً، بل ينبغي الاستمرار في الضرب الموجع حتى يكف الطفل عن البكاء، فالعقوبة البدنية العنيفة وسيلة ليست مقصودة فقط لفرض الطاعة، وإنما لإجبار الطفل أيضاً على إنكار ردود فعله التلقائية لهذه المعاملة.. وقد سمى كتاب (سياسة الإنكار) زعماء سياسيين أمريكيين بأسمائهم، أثرت هذه التنشئة القاسية ـ بعمق ـ في أفكارهم ومواقفهم السياسية المتطرفة.. ونحن

نمسك عن ذكر هذه الأسماء، لأن المقصود هو إثبات وجود العنف في البيئة هناك، وليس المقصود: التشهير، ولا التعيير.. ومهما يكن من شأن، فإن من اغتال إبراهام لنكولن ليس عربياً ولا مسلماً.. ومكفاي مفجر المبنى الاتحادي في أوكلاهوما ليس عربياً ولا مسلماً، إلا إذا أصر مفتر على أنه عربي بدليل: أن اسمه (مكي فايد) ولكن الاسم حرف حين نقل إلى الإنجليزية!!

أما أوروبا، فهي (حقل الشوك الأعظم) الذي نبت فيه الإرهاب واستغلظ وملأ الأرض رعباً ودماً.. يقول الكاتب البريطاني (جون غراي): «اتجاه أن الإسلام هو مصدر الإرهاب هو اتجاه غربي مزيف للحقائق. ذلك أن فكرة تغيير العالم عن طريق الإرهاب ليست فكرة منبثقة من الإسلام، بل على العكس هي فكرة غربية، فمنذ اليعقوبيين، ومروراً بلينين وستالين إلى منظمة بادر ماينهوف، ظل الغرب المعاصر يضخ أيديولوجيات، وحركات تقول باستخدام العنف من أجل عالم أفضل».. وهذه الشهادة مؤيدة ومؤصلة بشهادة مؤرخ أوروبي مشهور بدقته وتحليله في تسجيل الوقائع وتفسيرها وهو (هربرت فيشر). فقد قال ـ في كتابه : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ـ: «في فرنسا، أدى نشوب الحرب عام ١٧٩٢ إلى تكوين حكومة الإرهاب. إن ذكرى دانتون غارقة في الدماء والعنف، ولن يغفر له: إغضاؤه عن مذابح سبتمبر ١٧٩٢ المروعة. لقد كان الإرهاب في نظر دانتون، كما هو

في نظر جميع رجال السياسة: أداة ضرورية من أدوات السياسة والحكم. وهكذا كان دانتون مستعداً لأن يستخدم أي تدبير إرهابي يراه ضرورياً لإلقاء الرعب في قلوب أعداء الثورة».

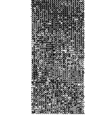
وبالانتقال من الإجمال إلى التفصيل، يتضح: أن أوروبا كانت المصدر الأعظم للعنف الدامي، والإرهاب المجنون في القرن العشرين.

إن الحركات الثلاث الكبرى العنيفة في القرن الماضي، بل في التاريخ البشري كله، إنما هي (إنتاج غربي):

١ـ فالصهيونية إنتاج أوروبي حيث تخمرت هناك ونبتت هناك، وتأسست هناك.

وهل الصهيونية حركة إرهابية؟ هي كذلك بحكم فكرها، وبمقتضى فعلها.. أما الفكر فملخص في كتاب هرتزل (الدولة اليهودية).. نقرأ في هذا الكتاب ـ مثلاً ـ: «لا يتم تأسيس دولة الآن بالأسلوب ذاته الذي كان يستعمل قبل ألف سنة. فلنفترض بأننا أجبرنا على أن نخلي بلداً ما من الوحوش. ففي هذه الحال يجب علينا ألا نقلد الأوروبيين الأقدمين بأخذ الرمح كل على حدة، ونبحث عن الدببة، بل يجب علينا تنظيم حملة صيد كبيرة، ومن ثم نجمع الحيوانات كلها معاً، ونلقي في وسطها القنابل المميتة»[(١)].. وأما الفعل فهو تطبيق لهذا الفكر. ولقد تمثل التطبيق في المذابح الإرهابية، في دير ياسين، وكفر قاسم، وصبرا وشاتيلا، وقانا، والمسجد

(١) يقصد بذلك: صيد الفلسطينيين وإبادتهم.



الإبراهيمي.. إلخ. ومنفذ الجريمة الإرهابية الأخيرة هو (باروخ جولد شتاين)، وهو يهودي صهيوني، عضو في تنظيم (كاخ) العنصري الدموي الذي أسسه الإرهابي كاهانا.. يهودي صهيوني - وليس عربياً مسلماً - تخرج في أقبية الفكر الإرهابي الصهيوني.

٢- والحركة الشيوعية، إنتاج أوروبي، وهي حركة قامت على فكر العنف، ومارست العنف على أوسع نطاق. فالبيان الشيوعي الأول يقول: «إن الشيوعيين يعدون إخفاء آرائهم ونواياهم عملاً عقيماً بلا جدوى، وهم يعلنون جهراً: أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها إلا بقلب النظام الاجتماعي الحالي بأكمله بوسائل العنف».. إن فلسفة العنف هذه ذبحت ٢٠ مليون إنسان.. وفي المدة ما بين ١٩٣٧ إلى ١٩٣٨، أي في عام واحد أرهب ستالين وقتل مليون إنسان رمياً بالرصاص. يضاف إلى ذلك مليونا آدمي قتلوا في معسكرات العمل.

٣- الحركة الثالثة الأوروبية الإرهابية هي: الحركة النازية والنبع الأساسي لهذه الحركة هو تمجيد العنصرية، واعتماد العنف سبيلاً لنصرة العنصرية. وبناء على الفكرة والفعل أشعلت النازية - بالتحالف مع صنوتها الفاشية - الحرب العالمية الثانية التي قتل فيها وشوه أكثر من ٣٠ مليون إنسان.

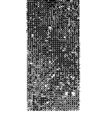
فهل هتلر عدناني؟ وستالين قحطاني؟ وموسوليني حفيد لامرئ القيس؟.. والألوية الحمراء الإيطالية هل تخرجت من مكاتب

تحفيظ القرآن؟.. وشوكو اساهارا زعيم الجماعة اليابانية الإرهابية المسماة بـ (الحقيقة المطلقة) هل ينتسب هذا الرجل وجماعته إلى الأزد؟.. وهل كورش زعيم الطائفة الداودية في أمريكا، هل هو من قريش بمعنى أن كورش: تحريف أعجمي للفظ العربي الأصيل (قريش)؟!

دون تقليل من المفاهيم المنحرفة التي يحملها مسلمون فتدفعهم إلى العنف والإرهاب، يمكن تسجيل حقيقة موضوعية وهي: أن حركات وجماعات كثيرة في الوطن العربي قد تأثرت بما كان يموج في أوروبا بعد عشرينيات القرن العشرين من أفكار ومسالك تنزع إلى التطرف والعنف..والعامل الثاني الذي أثر في جماعات وحركات عربية عديدة ـ بوعي أو بدون وعي ـ هو قيام إسرائيل. فقد قامت إسرائيل على أساس ديني، وأنشأ ذلك رد فعل، ثم اعتمدت على (القوة والعنف)، فحصلت استجابة لهذه الدعوة غير المباشرة!!.. بناء عليه، من المتوقع: أن تزداد (الأصولية الغالية) تفشياً في الوطن العربي، والعالم الإسلامي، باشتداد بأس الأصولية الدينية في الولايات المتحدة، وتعاظم تأثيرها في الفكر والإعلام، والقرار والحكم.

والخلاصة: أن نتعاهد على اجتثاث العنف من كل بيئة وثقافة، وألا ننصر عنفاً على عنف، فإن هذا الموقف الانتقائي الاستثنائي هو أول الوهن في مكافحة الإرهاب.

(الثوابت الوهمية):
المفهوم الخاطئ
للولاء والبراء



حين يستعمل مصطلح (الثوابت) في لغة الثقافة والفكر والإعلام، ينصرف الذهن ـ في العادة ـ (دون قرينة صارفة) إلى الأمة العربية الإسلامية، وكأنها هي وحدها المتفردة بـ(الثوابت) من بين أمم الأرض.. وهذا احتجاز أو حبس للمصطلح في دائرة بشرية حضارية محدودة. وهو حبس أو حصر مخالف للمنهج العلمي في الاستقراء، ووصف الحال والواقع. ذلك أن لكل أمة بشرية (ثوابتها) التي تثبت عليها، ولا تتزحزح عنها.. هذه حقيقة فلسفية وتاريخية وواقعية لا يماري فيها إلا من لا علم له بتاريخ الأمم وثقافاتها ودساتيرها وواقعها.

إن للأمة الصينية ثوابتها.. وللأمة اليابانية ثوابتها.. وللأمة اليهودية ثوابتها.. وللأمة الأمريكية ثوابتها. ولنضرب مثلاً أو نقدم نموذجاً من ثوابت الأمة الأمريكية (التي يتوهم جهلة عرب ومسلمون أنها أمة مفلتة لا تتقيد بأي ثابت).. إن الدستور الأمريكي هو أعظم ثابت في تاريخ الولايات المتحدة وواقعها.. نعم، جرت تعديلات عديدة على هذا الدستور، بيد أن أصوله العميقة، ومقاصده الأساسية بقيت (ثابتة).. ومن هذه الأصول:

بتاريخ ٢١/٦/٢٠٠٣م.

رئاسة الجمهورية.. والكونجرس .. والفيدرالية.. وفصل السلطات .. يقول ماكس سكيدمور. ومارشال وانك في كتابهما: ـ كيف تحكم أمريكا ـ « لقد أظهر الذين صاغوا الدستور ـ بكل وضوح ـ قصر هذا القانون الأساسي على الأساسيات والثوابت، ولئن حصل تعديل، فهو تعديل مشروط بألا يكون راديكالياً ولا سريعاً يتناقض مع روح وجوهر أساسيات الدستور. ولذلك اشترط في التعديل أن يكون بأغلبية ثلثي الكونجرس على الأقل، ولابد للتصديق على التعديل من موافقة ثلاثة أرباع الولايات».

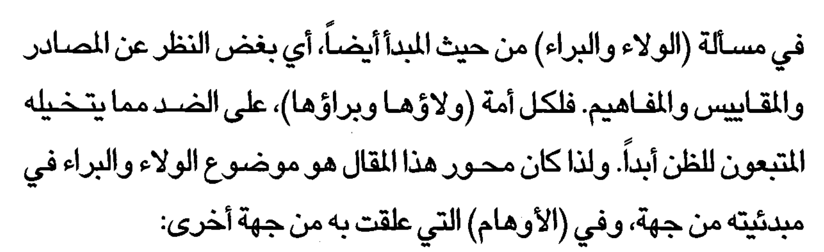
لا جرم أن الثوابت تختلف باختلاف ثقافات الأمم ومراجعها ومصادر تشريعها ومنابع نظرياتها الفلسفية والاجتماعية.. والشاهد أن لكل أمة ثوابتها، حتى أولئك المشركون العرب كانت لهم ثوابتهم التي ثبتوا عليها، وعبروا عن هذه الثوابت بأقوال مختلفة الصيغ منها:

أ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾.

ب ـ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾!!.

والمسلمون ليسوا بدعاً على هذا الكوكب. فهم ـ كذلك ـ لهم ثوابتهم المستمدة من مرجعيتهم ومصادر تشريعهم ومنابع ثقافتهم. ولن يكونوا مسلمين إلا بهذه الثوابت التي في طليعتها: وجود الله ووحدانيته وعبادته.. وعصمة القرآن من التحريف والتبديل.. وعصمة الرسول في البلاغ.. وختم النبوة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.. وسائر أركان الإيمان والإسلام.

وكما يلتقي الناس كافة في مسألة (الثوابت) ـ من حيث المبدأ ـ يلتقون


في مسألة (الولاء والبراء) من حيث المبدأ أيضاً، أي بغض النظر عن المصادر والمقاييس والمفاهيم. فلكل أمة (ولاؤها وبراؤها)، على الضد مما يتخيله المتبعون للظن أبداً. ولذا كان محور هذا المقال هو موضوع الولاء والبراء في مبدئيته من جهة، وفي (الأوهام) التي علقت به من جهة أخرى:

أولا: الولاء والبراء من حيث المبدأ، أو المسلّمة العامة.

١ ـ الولاء والبراء عند الأمريكيين ـ كمثال ـ بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١: أُشبعت مفردات خطابات الرئيس الأمريكي (جورج بوش) بمعانٍ ومفاهيم من مثل: (لا حل وسط: إما معنا، وإما ضدنا) .. (هناك من يكرهنا لحضارتنا وحريتنا فهو ضدنا ومع الإرهاب.. وهناك من يحبنا لحضارتنا وحريتنا فهو معنا وضد الإرهاب). والترجمة العقدية أو الفقهية لهذه المفردات، يمكن تحريرها في العبارات التالية ـ التي أراد الرئيس الأمريكي إيصالها للعالم ـ وهي (نوالي من يوالينا، ونعادي من يعادينا).. ومن الخطأ: أن يظن ظان: أن هذا المصطلح قد ابتكره رئيس الولايات المتحدة الحالي بدافع من غضبة تكافأت مع الحدث. فمصطلح (الولاء والبراء) أو الولاية والعداوة متأصل في الفكر الأمريكي، والثقافة الأمريكية، بل متأصل في خلاصتها وذروتها.. مثلاً: نقرأ في الفقرة الثالثة من المادة الثالثة من الدستور الأمريكي هذا النص: «جريمة الخيانة العظمى ضد الولايات المتحدة ستشتمل فقط على شن حرب ضدها، أو الموالاة لأعدائها، وتقديم العون والمساعدة لهم».. إن كلمة الموالاة منصوص عليها حرفياً في الدستور الأمريكي، وكذلك كلمة المعاداة.. وبحكم (منطق الواقع)، لا نحسب عاقلاً

يظن: أن الرئيس الأمريكي - ومن معه - يحبون - إلى درجة الغرام والهيام - أسامة بن لادن وحزبه. بل إن أولئك يكرهون هؤلاء سراً وعلانية، ويتبرأون منهم: من عقائدهم وأفكارهم وأفعالهم.. ولو اتخذ الأمريكيون غير هذا الموقف لأصبحوا مجانين وحمقى لا يفرقون بين ولي وعدو: يلقون كارههم بالمحبة الغامرة، والحضن الدافئ!!.

٢ - الولاء والبراء عند المسلمين: إذا كان من حق الأمريكيين - وغيرهم - أن يوالوا، وأن يعادوا، وفق مقاييسهم وموازينهم الخاصة. فمن حق المسلمين - كسائر الناس - أن يوالوا وأن يعادوا وفق مقاييسهم وموازينهم الخاصة.. وقد تعود البشر - وهذه ظاهرة محزنة في التاريخ الإنساني كله - أن يفجروا في العداوة إذا عادوا.. ولما كان الإسلام دين الله، وأن من صفات الله العدل المطلق، فإن منهج الإسلام اشترط في الموالاة والمعاداة: ألا تكون الأولى محاباة لأحد، وألا تكون الثانية: وصفاً ولا حكماً ظالماً لأحد، يترتب عليه ظلم معنوي أو مادي.. وثمة ضميمة لا بد منها وهي: أن للموالاة والمعاداة في منهج الإسلام جانباً عقلانياً وواقعياً: فمن يحب الحرية يكره الطغيان والاستبداد. ومن يحب الصحة والعافية يكره الوباء والمرض. ومن يحب الرفق واللطف يكره العنف والبطش، ومن يحب الخير للناس، يكره وقوعهم في الشر وتهافتهم عليه.

المفهوم الخاطئ للولاء والبراء

ثانيا: تبين - بالمنطق العقلي والواقعي - أن الموالاة والمعاداة ثابت من ثوابت الحياة الإنسانية - من قبل ومن بعد - وقد قرر الإسلام مفهومها

الحقيقي. **لكن مفاهيم خاطئة أو منحرفة، احتلت عقول قوم مسلمين، واختلطت بالمفهوم الصحيح، فانحرفت به، ومنحت نفسها ـ على عوجها ـ طابع الثبات**.. وهذه مفسدة علمية وعملية: هي مفسدة علمية بمعنى تحريف المفهوم الصحيح عن مواضعه.. وهي مفسدة عملية بما ينبني عليها من اضطراب وسوء وضرر في علاقة المسلمين بغيرهم، وتعاملهم معهم: داخل الوطن، أو في محيط العلاقات الدولية.

فبهذا المفهوم أو الثابت الوهمي للولاء والبراء: عطلوا قيماً إسلامية مضيئة وكثيرة في العلاقة بغير المسلمين والتعامل معهم. عطلوا قيمة محبة الخير للناس: جميع الناس. مع أن محبة الخير للناس هي مقصد النبوة، وحكمة التشريع. وعطلوا قيمة الدعاء لغير المسلمين بالدعاء عليهم أجمعين (لا الظالمين وحدهم)، مع أن الرسول دعا للمشركين بالهداية فقال «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»، ورفض أن يدعو عليهم ـ حين طُلب منه ذلك ـ وقال: «**لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة**». وعطلوا قيمة العدل، فجاروا على غير المسلمين في الوصف والحكم، مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا**﴾.. ومن الإلحاد في آيات الله: الزعم بأن العدل هنا مقصور على المسلمين، لا ينتظم غيرهم من أهل الأديان والملل الأخرى.

بل إنهم بهذا المفهوم المنحرف أو الثابت الوهمي للولاء والبراء: نسخوا آيات محكمات عاملات في القرآن العظيم:

١ ـ نسخوا آية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ فالآية تزيل الأسلاك الشائكة بين الأمم.

٢ ـ ونسخوا بهذا المفهوم الخاطئ أو الثابت الوهمي آية: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يأمر الله تعالى بمصانعة العدو الإنسي، والإحسان إليه ليرده عن العداوة، إلى الموالاة والمصافاة طبعه الأصيل».

٣ ـ ونسخوا بهذا الثابت الوهمي للولاء والبراء آية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.. فهذه الآيات دعوة صريحة إلى الإيناس والإيلاف وفتح باب الاحتمالات الحسنة، فكيف يوصد هذا الباب بالثابت الوهمي للولاء والبراء؟

٤ ـ ونسخوا بالمفهوم الخاطئ للموالاة والمعاداة آية: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ومن البر ـ كما يقول الإمام القرافي ـ: «لين القول لهم على سبيل التلطف، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمور دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم وإيصالهم لجميع حقوقهم».

ولكن حين انحرف مفهوم الموالاة والمعاداة عن هذا المنهج القويم، رزئ المسلمون بمن يفسد علاقتهم بغير المسلمين بالكلمة الفاحشة، والعنف المسلح، والتكبّر على خلق الله، واحتقار بني آدم الذين كرمهم الله.

الفصل الثاني

قبل قارعة ١١ سبتمبر

(تكتيك) الخلط
بين الإسلام والغلو

لا تدخل مع أحد في جدال أو مناقشة أو حوار، إلا إذا حدّد منهجه قبلاً، أو اتفقتما ـ في البدء ـ على منهج معتبر ـ علماً وعقلاً ـ ذي قواعد منتظمة، ينطلق منها الحوار، وتستصحب في السياق، وتحكم النتائج. فإن الكلام المتبادل، بدون منهج ـ لا سيما في القضايا الكبرى الجادة ـ إنما هو نطق سُدى، وحديث أقرب إلى اللغو الذي لا تنضبط له عبارة، ولا يستقيم في سياقه معنى، ولا يصل فيه أحد إلى نتيجة.. ومثل طَرَفَيْ هذا الكلام أو الحوار، كالساقي في المقهى أو الفندق الذي سمع أحد الجالسين يردد كلمة أو لفظ (حَلَبة) ـ بفتح الحاء واللام ـ فأتى له بشراب (الحِلْبة) ـ بكسر الحاء وسكون اللام ـ.. أو كالذي سمع ـ في الإذاعة ـ اسم نوردوم سيهانوك، ففهم أنه (نور الدين شيخ النوق).. أو كالذي يقرأ ـ في القرآن ـ «قل الله» فيفهم أنها (كن الله) ـ كما جاء في تأويلات فاسدة ـ.

أقول له عمرو فيفهم خالداً
ويكتبها زيداً وينطقها بكراً

بتاريخ ٩/٤/١٩٩٤م.

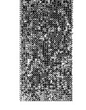
في غياب المنهج المتفق عليه، تضطرب الموازين والمعايير، وتفسد المعاني والمفاهيم، وتسقم وتنحرف الأحكام والمواقف والنتائج.

وعندئذ يقع الخلط الشديد بين الأمور.

وهذان مثلان يوضحان (أزمة الخلط) ويصورانها تصويراً.

١ـ من البواعث إلى جريمة الانتحار، ومن دوافع المنتحرين، ومن خصائص طريقة تفكيرهم: (الخلط الشديد) بين الأمور، أو بين ما لا يصح أو يجوز الخلط فيه من قضايا الحياة.. فهؤلاء يخلطون بين الصعوبات التي تواجه كل حيّ من المخلوقات، وبين طبيعة الحياة. فالمنتحر حين يواجه صعاباً شديدة الوطأة، ومضايق موصدة الأبواب والمنافذ ـ أو هكذا يتصور هو ـ فإنه يفهم من ذلك: أن معنى الحياة ذاته قد انتفى، فيقدم على الانتحار. فالصعوبة عنده، ليست معضلاً ينبغي التغلب عليه، بل هي مفهوم مناقض لاستمرار الحياة، أو أن الصعوبة لا توجد إلا في ذات اللحظة التي انتهت فيها مسيرة الحياة. ومن ثم يقوده الخلط بين الصعوبة ومعنى الحياة إلى الانتحار.

٢ـ لنفترض أن امرءا دأب على الشغب على علم الفيزياء، والطعن فيه جملة، والسخرية منه باستمرار. فلما سئل عن هذا الموقف الغريب قال: إنه بوجود علم الفيزياء ـ وكنتيجة له ـ امتلأ



كـوكب الأرض بأسلحة الدمار الشامل ـ كالقنابل الذرية والنووية... إلخ ـ وهي أسلحة من المحتمل أن تجعل الحياة على هذه الأرض لظى يحترق فيه نصف البشر أو أكثر، في حين يعيش من بقي منهم، مشوهاً جسدياً بفعل الإشعاع، ومشوهاً نفسياً من هول الصدمة المرعبة.

إن هذا التصور العجيب، منبثق من الخلط الشديد بين قضيتين: قضية علم الفيزياء المحايد النافع، وقضية التطبيقات الخاطئة لهذا العلم، وهما قضيتان مختلفتان جداً، بمعنى أنه لا ينبغي إصدار حكم واحد عليهما.

في غياب المنهج أيضاً ـ أو في أجواء عدم الاستعداد لاجتلائه والتزامه ـ يقع ما هو أسوأ من ذلك كله، وما هو أفظع وأشد خطراً وضرراً وهو: الخلط الشديد بين الإسلام والغلو.. وهو خلط لا يزال يتداعى، ويتراكم حتى أمسى ظاهرة، أو كارثة فكرية واجتماعية في العالم الإسلامي ـ إلا من رحم الله ـ .وقبل أن نبسط القول في أزمة الخلط هذه، يقتضي السياق: كتابة فقرات عن موضوع الغلو.

إن (الغلو) مرض فكري ونفسي، يمكن أن يظهر في أية بيئة ـ وفي أي مذهب ـ حتى وإن كانت هذه البيئة ذات رشد وصلاح ونضج واستقامة، في منهجها الكلي، وفي قيادتها، وفي عدلها القضائي والاقتصادي، وفي مناخها العام: الاجتماعي والأخلاقي.

ولدينا على ذلك، دليلان لا يقبلان المراء ولا النسخ.

الدليل الأول: أنه في أفضل أجيال التاريخ البشري كله، دون استثناء وهو جيل الرسول وعهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبتت نابتة الغلو، ففي يوم ما، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم بين نفر من الناس مالاً فقام رجل ـ وهو ذو الخويصرة ـ غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتق الله ـ أو اعدل ـ فقال النبي: «ويلك،أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله»؟.. ثم ولَّى الرجل، فقال النبي: «**إنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا (من أصله أو من جرثومة مذهبه) قوم يتلون كِتابَ الله رطباً، لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**».

والدليل الثاني في عهد الخلافة الراشدة ـ وهو عهد راشد صالح عادل ـ ظهر الغلو ممثلاً في الخوارج كجماعة.. ولا يستطيع أحد أن يقول: إن ظروف البيئة هي التي أوجدت هذا الغلو، فإن الماء النقي المعقم المطهر مثلاً، لا يكون مصدراً للملاريا.. وبدهي أن هناك عوامل تزيد الغلو عراماً وضراماً، كالتحامل على الإسلام، والضغوط الخارجية الظالمة على المسلمين، صحيح أنه لا ينبغي للمرء أن يغلو ـ تحت أي ظرف من الظروف ـ بيد أنه في حال انعدام أو نقص العلم الشرعي،

لا تنضبط الأفعال بضابط الشرع، ولذا، فإنه من الجور والخبث: أن يسمى الفعل غير المضبوط بمنهج الشرع، فعلاً دينياً، ينسب إلى الإسلام، إذ كيف ينسب إلى الإسلام، ما تم في غياب منهجه؟.. كيف يحمّل الإسلام مسؤولية الغلو، وهو الدين الذي يقول كتابه: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾..ويقول نبيه: «**هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون**». (وهم المسرفون الذين جاوزت أفعالهم وأقوالهم الحدود المشروعة).

وعلى الرغم من وضوح المنهج، ووجود الفروق الهائلة بين الإسلام والغلو، بل وجود التناقض والتضاد بينهما، فإن هناك أقواماً رأوا ظواهر من التجاوزات ـ تلبست بالإسلام ـ فطفقوا يستغلون هذه التجاوزات في تفجير المعركة ضد الإسلام نفسه، بأساليب وإن خالها أصحابها تخفى على الناس تعلم.

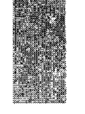
إن هذا الموقف تكتيك سياسي وفكري معلوم الغرض.. وليس من المنهج العلمي ـ ولا الأمانة والنزاهة العلمية ـ استخدام التكتيك السياسي والإعلامي، أو استثمار ظاهرة معينة لتصفية، أو إنهاء الحساب الشخصي أو الأيدلوجي مع ديانة كبرى هي الإسلام.. وإذا كانت حقائق المنهج الموضوعي لا تسمح بهذا الموقف.. بل تأباه وتنفيه، فإن الظروف السياسية: الوطنية والإقليمية والعالمية لا تحتمل هذا الخلط في هذه القضية.

ومن هنا يلزم تحديد الموقف بوضوح تام، ودقة كاملة من الإسلام نفسه لأن هذا هو الموقف المنهجي الصحيح.. ولأن الخلط بين الإسلام والغلو، ثم اتخاذ هذا الخلط ذريعة لغمز الإسلام وتجريمه وتجريحه، عامل من عوامل تغذية الغلو.. ويبدو أن استغلال الظواهر شيء متبادل. فكما يستغل أقوام ظواهر التجاوز - المتلبسة بالإسلام - للنيل من ذات الإسلام، فإن آخرين يستغلون النيل من الإسلام ذاته، كتعليل ملموس للمضي بالغلو إلى ما لا نهاية.

ولنعد إلى قضية المنهج، ولنجعل قواعده ومفاهيمه في صيغة أسئلة:

هل سيتخلى الناس جميعاً عن دياناتهم؟.. الجواب بـ (لا) يترتب عليه سؤال جديد وهو: فبأي منهج يحاول أناس استثناء المسلمين من هذا الحق البدهي؟.. والجواب بـ (نعم) غير واقعي، أي أنه غير حاصل على أدنى درجات المصداقية المنهجية في الشهادة الواقعية.

هل الإسلام دين مُوحى به، فهو - من ثم - حقيقة علمية واجتماعية وتاريخية وحاضرة ومستقبلة؟.. من كان جوابه بـ (نعم)، فلا يكتنف تفكيره وسلوكه إشكال.. ومن نفى ذلك، فإنه - وهو يحدد موقفه - قد أخذ صفة أخرى، وحكماً آخر في المجتمع المسلم (فخرج عن موضوعنا من ثم).



هل الغلو يكافح ببديله، ونقيضه الصحيح وهو (وسطية الإسلام)؟.. من قال بالبديل الصحيح، لزمه أن يتبنى البديل الصحيح، أي وسطية الإسلام بوعي، وصدق، وعزم.. أو يكافح بما يزيده اشتعالاً؟.. من قال بذلك ـ بمكافحة الغلو بمذاهب أو أفكار مناهضة للإسلام ـ أعان الغلو على ما يريد، لأن الصدام مع الإسلام نفسه، أضخم وأعظم خدمة تقدم للغلو.

هل سوء التطبيق للمبدأ الصحيح، يقضي ـ منهجياً ـ بإلغاء ذات المبدأ؟.. إذا كان الجواب : أن (نعم)، فلن يبقى للناس أصل أو قاعدة صحيحة في حياتهم كلها، فإنْ منْ قاعدة صحيحة إلا أسيء تطبيقها: التعليم، الطب، العلاقات الزوجية، القضاء، المرور، الكتاب، الصحافة، السياسة، التليفزيون، وسائط الاتصال الفضائي، الدبلوماسية، الاقتصاد، الإدارة، الكيمياء، النقود، المساكن، الحدائق ، الفيزياء... إلخ.

وإذا كان الجواب: أن (لا).. لا يقضي سوء التطبيق بإلغاء المبدأ، أو القاعدة الصحيحة، فإن هذا الفهم المنهجي الصحيح ـ الذي لا يخلط بين الأمور ـ ينطبق على الإسلام.

ويتبدى ـ ها هنا ـ إعضال، يتعين فكّه وحله وهو: هل كل نقد للتجاوزات ـ التي تجري باسم الإسلام ـ يعد طعناً في ذات الإسلام؟.. السؤال، بصيغة أخرى: كيف يمكن التفريق

الواضح والأمين بين التكتيك السياسي والفكري ـ الذي يتوسل بظواهر الغلو إلى نفي الإسلام نفسه، أو إدارة المعركة ضده ـ وبين النقد الموضوعي ـ والمطلوب ـ لهذه الظواهر؟

يمكن التفريق الواضح بين الموقفين بـ:

أـ معرفة حقيقة الموقف الأصلي ـ للناقد ـ من الإسلام.

ب ـ تبني معيار الإسلام الحق في عملية النقد والتقويم، وهو معيار أقامه الإسلام، ودعا إلى استعماله. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن نهى عن مظاهر الغلو: «**هذه سنتي، من رغب عن سنتي فليس مني**». أي أن سنته: الابتعاد عن الغلو، والتزام التوسط والاعتدال.

فإذا كان المرء، ذا موقف موضوعي وشريف وعادل ونزيه من الإسلام نفسه ـ وهذا يعرف من السيرة الذاتية، ومن طبيعة الأفكار المعلنة ـ وإذا كان معياره في نقد ظواهر الغلو مستمداً من وسطية الإسلام، بمعنى محاكمة كل قول وعمل واعتقاد وسلوك إلى منهج الإسلام، فإن نقده يكون موضوعياً ـ بل مفيداً ـ وغير تكتيكي ولا استغلالي.. أما إذا كان أصل الموقف ـ من الإسلام ـ متحاملا ومريباً، وكان معيار النقد مزاجياً، أو انتصاراً لأيدلوجية أخرى نقيضة، فإن النقد عندئذ، ليس سوى تكتيك يتخذ من ظواهر الغلو

وسيلة إلى نقض الإسلام: عروة بعد عروة.. تكتيك يبدأ بنقض الإسلام السياسي (وهو مصطلح رجراج لا نقرّه، ولكن نجريه كما جاء مسايرة لسياق الحجاج). فيثني بنقض الإسلام التشريعي، فيثلث بنقض الإسلام العبادي، ويربع بنقض الإسلام الاجتماعي، ويخمس بنقض الإسلام الأخلاقي، ويسدس بنقض الإسلام الثقافي، ويسبع أو يثمن بنقض الأسماء الإسلامية للمسلمين!!

ونضبط الكلم ـ ها هنا ـ ضبطاً شديداً، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها.. فللإسلام السياسي ـ كمفردة رائجة ـ مفهومان: الأول: هو استغلال الإسلام وتوظيفه لخدمة الأغراض والأهواء السياسية، دون الالتزام بمقتضيات عقيدته وشريعته، وتعليمه وقضائه.. وهذا مفهوم فاسد منكر.. أنكره الإسلام نفسه، ودمدم عليه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.. أما المفهوم الثاني: أن يقصد به أن ليس من مقاصد شريعة الإسلام: إقامة العدل والشورى ورعاية التوحيد وحمايته، وتصريف مصالح الناس وفق (السياسة الشرعية) فهذا مفهوم فاسد كذلك من حيث أن النفي كلام غير منهجي، ولا سند له من دليل أو برهان.

لقد قلنا ما قلناه بوضوح، لأننا نلمح أن هناك من يريد أن يمزق المجتمعات العربية والإسلامية بالشطط، وبالشطط



المضاد - الخلط بين الإسلام والغلو- ثم بالتذرع بالشططين يُفتح صراع طويل ومرير مع الإسلام نفسه. وقد يقال: إن الشانئين لن يعدموا ذريعة للكيد له.. والرد هو: أن المرء مكلف - قبل كل شيء - بالسيطرة على نفسه، والتحكم فيما يقول ويفعل، بمعنى ألا يكون فتنة لأولئك، ولا ذريعة بين أيديهم، ولا أداة لتحقيق ما لا يخطر له على بال من السوء والبلاء.

لئلا يظفر الغربيون ببراءة مجانية

في مؤتمر القمة الإسلامي في الدار البيضاء، تردد كثيراً مصطلح (صورة الإسلام)، وأهمية حمايتها من التشويه.

وليس يدندن هذا المقال، حول ما يقترفه مسلمون من أفكار ومواقف وأفعال، تسقط كماً هائلاً من التشويه على دينهم. فهذا موضوع آخر.

إنما يختص هذا المقال بقضية محددة وهي: أن التركيز الأحادي على مسؤولية المسلمين في تشويه ديانتهم، يوحي ببراءة الغربيين من جريمة التشويه والتقبيح، أو يُوجِد ما يسمى في القانون الجنائي (بالظروف المخففة) أو الملطّفة .

إن التفطّن إلى هذه القضية، لازمة من لوازم الوعي الفكري والسياسي والإعلامي والحضاري.. وتتعزز هذه الفطنة، باستصحاب ما يعرف - في علم صناعة القرار - بحساب «الأثر الجانبي» أو «الأثر الآخر» للقرار.. وفي الحقيقة، فإن هذا الحساب الاحترازي - ابتغاء دفع الإيهام أو الإيحاء - منهج إسلامي، قبل أن يكون فناً في صناعة القرار.

بتاريخ ١٧/١٢/١٩٩٤م.

في القرآن: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فالثناء المفرد على سليمان ـ في هذا المقام، أو في مسألة قضائية مشتركة ـ قد يتوهم بعض الناس، أنه يتضمن انتقاصاً لأبيه داود ـ عليهما السلام ـ فَدُفع هذا الوهم أو الاستنتاج المحتمل بإثبات الفضل لهما جميعاً ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وفي الحديث: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**».. وهذا حديث يقرر ذات المنهج: منهج تقدير الاستنتاجات غير الصحيحة، ودفعها بما هو صحيح.. وفي هذا المنهج تربية وتعويد للتفكير على أن يجيل النظر في جميع الزوايا، ويحسب حساب (الأثر الآخر) للقرار، وللموقف.

لئن تلبس مسلمون بما يشوه دينهم، ويعتم صورته في العالم ـ وهذا موضوع يتطلب طرقاً مفرداً ، كما قلنا ـ فإن هذا التلبس، لا ينقص من مسؤولية الغربيين شيئاً، أو لا يبرئ جهات غربية، تتحرى دوماً الإساءة إلى الإسلام، والتشويش على مبادئه، واللغو في قيمه.

وهذا ملف: ضخم حجمه، كثيرة أوراقه، طويل تاريخه، ينبغي أن يعرف لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، ولئلا تصادر حرية المعرفة بما ينبغي أن يعرف: اضطراراً وليس مجرد هواية.

منذ قرون، نشأت حركة فكرية غربية، عُرفت بـ (حركة الاستشراق)، والدلالة اللغوية المحايدة للكلمة (استشراق) تعني ـ

هنا ـ: استشراف معرفة الشرق، أو طلب التعرف على ما في الشرق من معارف وأحوال ـ . فما الاستشراق على التحقيق؟

إن الدلالة اللغوية المحايدة للكلمة، نُزعت ليحل محلها مضامين ملؤها الانحياز والمضادة والشنآن.

ومن هنا، وباستثناء حالات ومواقف قليلة ـ نسبياً ـ فإن حركة الاستشراق إنما هي (حركة التخصص في تشويه الإسلام).. ومما يُلحظ ـ هاهنا ـ :

أـ التاريخ المبكر لنشوء هذه الحركة.

ب ـ أن التشويه الذي باشرته تركز وانصب على (الإسلام ذاته) من حيث هو دين.

جـ ـ أن التشويه تطاول وامتد ليشمل الإسلام كله، فقد نشطت حركة الاستشراق في محاولات، تحرت فيها: تشويه عقيدة الإسلام بشعبها كافة، والتشويش على القرآن: نصاً وتفسيراً، والتشويش على الحديث: نصاً ورواة.. وهناك من المستشرقين من تخصص في اللغو في لسان العرب. فمنهم من زعم أن مادة لسان العرب ـ أي الشعر الجاهلي ـ ليس لها وجود في التاريخ القديم، ومنهم من ادعى أن العربية فُتات من العبرية، ومنهم من زعم أن لسان العرب نسق لغوي موغل في البداوة، لا يتسع ـ ولا يحتمل ـ مفاهيم التمدن والتحضر والعلوم والأخلاق الرفيعة.

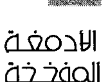
ومَن الناقد؟!

أناس لم ينبتوا في بيئة العرب، ولم تجر ألسنتهم بألفاظها: المفردة والمركبة.. فهل يكون هؤلاء أحسن حالاً - في هذا المجال - من فيتنامي لم يخرج من قريته - مثلاً - منح نفسه حق انتقاد فن العروض للخليل بن أحمد، وحق الاستدراك على معلقة عمرو بن كلثوم؟.. كلا، ليسوا أحسن حالاً من هذا المرء، وإنما هي الرغبة في التشويه.

ليس في المقام متسع للضحك، ولكن المرء يضحك مضطراً أحياناً.

أوليس من أعاجيبهم وأقاويلهم المضحكة، أن يقول أحدهم: إن الله - في الإسلام - خلق الملائكة لكي يحموا الناس من ظلمه - تقدس في علاه - ما دليل هذا المفسر العظيم:!!.. استنبط ذلك من آية الرعد: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.. في حين أن البداهة اللغوية تهدي إلى المعنى الصحيح، ومنه: يحفظونه بأمر الله، فأحرف الجر في لسان العرب، ينوّب بعضها عن بعض.. وفي القرآن: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أي اسأل عنه خبيراً.. وعبارة ابن كثير: «أي، استعلم عنه من هو خبير به عالم به».. ثم - كما قال قتادة - «يحفظونه بأمر الله» في بعض القراءات.

ومن أعاجيبهم - كذلك -: زعم بعضهم أن المسلمين يعبدون محمداً صلى الله عليه وسلم.. كيف؟!.. لأن الإسلام يطلب من



المسلمين أن يصلوا عليه!! وطَرْدُ منهجهم المعتل هذا يؤدي إلى الزعم بأن الله نفسه تقدس وتعالى ـ يعبد محمداً!! حيث إن هناك نصاً قرآنياً يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.. وسبب هذه الأوهام: جهالتهم بلسان العرب، وفقه الإسلام، فالصلاة ـ في اللغة ـ هي: الدعاء، وهي ـ في فقه الإسلام ـ هاهنا: رحمة من الله، وثناء من الملائكة واستغفار.

يتبين ـ مما تقدم ـ أن محاولات تشويه الإسلام، عمل مبكر، تخصص فيه أقوام تخصصاً موسعاً أو أفقياً، انتظم عقائد الإسلام وشرائعه وشعائره جميعاً.

ذلك التراث ـ المكوّن من جهود متتابعة تبتغي التشويش على صورة الإسلام، أمام أتباعه، وأمام غير المنتسبين إليه من أبناء البشرية ـ خميرة ومادة ومداخل، اعتمد عليها الإعلام الغربي ـ السياسي والثقافي والحضاري في التشويش على الإسلام في الحقب الأخيرة.. وهو تراث أصبح ـ من شدة إلحاحه على العقل ـ ملكة تفكير ثابتة، أو هكذا يبدو الأمر. فحتى حين يقال عن الإسلام كلمة إنصاف، فإن عادة التفكير الغالية، تسارع إلى التشويه، وبافتعال تنهار معه مزاعم البحث العلمي، والموضوعية (الأكاديمية).

مثلاً: قال (فرانسيس فوكوياما) ـ في كتابه نهاية التاريخ ـ: «صحيح أن الإسلام يشكل أيديولوجيا متسقة ومتماسكة شأن

الليبرالية والشيوعية، وأن له معاييره الأخلاقية الخاصة به، ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية، كذلك فإن للإسلام جاذبية يمكن أن تكون عالمية، داعياً إليه البشر كافة باعتبارهم بشراً، لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية أو قومية معينة، وقد تمكن الإسلام في الواقع من الانتصار على الديمقراطية الليبرالية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي»!!

ولم يقل الكاتب: أين، ومتى وكيف، ولماذا؟.. حسبه أن يلقي الشبهة ويمضي.

ثم يقول: بعد هذا الثناء المحتجز ـ بسرعة ـ: «وشكل ـ أي الإسلام ـ خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية حتى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة».

كيف حدث ذلك؟

هذا هو التعليل (العلمي!!) الذي توصل إليه الكاتب. فقد قال: «وقد تلا نهاية الحرب الباردة في أوربا، على الفور، تحدي العراق للغرب، وهو تحد كان الإسلام أحد عناصره».

أي أن الإسلام هو المحرض والمسؤول عن غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠.

لا ينقص فوكوياما إلا أن يقول: «إن الإسلام هو المسؤول عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، وعن صناعة السلاح النووي، وعن اندلاع الثورة الشيوعية عام ١٩١٧، وعن انتشار الإيدز، وعن

الثقوب في طبقة الأوزون».

بل يمكن أن يقول ذلك، بل قال مثل ذلك آنفاً:

يمكن أن يقف هو وأمثاله هذه المواقف، ما دام الهدف هو: النيل من الإسلام، وتشويه صورته، والتشويش على سمعته، ولا قيمة محترمة قط ـ عندئذ ـ لالتزام الموضوعية في البحث العلمي، ولا لمنطق العقل في التفكير والتعبير، ولا للعنصر الأخلاقي الرفيع الذي يلزم صاحبه بالترفع عن الكذب، خوفاً من معرة الاتهام بالكذب، كما فعل أبو سفيان بن حرب، أمام قيصر روما، حين أبى أن يكذب على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو خصيمه، إذ كان أبو سفيان مشركاً يومئذ.

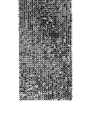
إن تشويه (صورة الإسلام) رغبة ثابتة عند القوم، أو عند جهات معروفة معينة منهم.. وهذا تحفظ لابد منه، حيث إن الواقع يقول: إن فيهم منصفين، وحيث إن منهجنا يتفادى الأحكام المطلقة في الحكم على الناس.. وثالثة مهمة وهي: صون الذات من أن تحاكيهم في جدبهم الخلقي.

نعم، إن هناك جهات ودوائر، جعلت أكبر همها: تلفيق الشبهات والتهم والنقائص، ثم رَمي الإسلام بها.. نعم، الإسلام دون سائر العقائد والملل. ولئن انتُقد بعض هذه العقائد والملل، فإن نقدها لا يساوي ٥٪ من التشهير المسلط على الإسلام.. ففوق كوكبنا هذا، يُعتنق الناس ألوف المعتقدات، تتراوح بين عبادة الشيطان، وعبادة

الفئران، وعلى الرغم من ذلك، فإن معظمها في مأمن من النقد والتجريح.. لكن الشانئين يخصون الإسلام ـ وحده ـ بأطنان من المواد المشوهة والمشوشة.. والغريب أنهم في افترائهم هذا، إنما يطمئنون أو يعتمدون على «شيء» فينا!! فهم يعلمون أن منهجنا وخلقنا يمنعاننا من القيام برد فعل مماثل.

مثلاً: لقد تكلموا ـ بالذم ـ في الصدّيقة بنت الصدّيق، عائشة الطاهرة المطهرة ـ بنص القرآن ـ ولكن يحرم علينا نحن أن نتكلم في مريم الصدّيقة بسوء، لأن القرآن رسّخ فينا اليقين ببراءتها وطهرها.. ومقالة السوء فيها رد لصريح القرآن.. وهذا كفر بواح.

ولقد اصطنعوا لأنفسهم، مقياساً شديد الغرابة في تقويم الشخصيات المرغوبة عندهم، فالشخص مكرم مبجل حَظِيّ ما دام متلبساً بجرح الإسلام وإثارة الغبار حول حقائقه.. فحين أصدر خالد محمد خالد كتابه (من هنا نبدأ) طاروا به فرحاً، وأقبلوا يلمعون الكاتب والكتاب تلميعاً باهراً.. فلما أصدر كتابه (الدولة في الإسلام) ـ وهو كتاب ـ نادر الشجاعة في عرف الفكر العربي المعاصر ـ أصيبوا بالبكم، وانسحبت آلة المدح من المسرح.. وحين أصدر طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) أقاموا لذلك أعراساً دائمة، ساطعة الأضواء. فلما أصدر سلسلة (الإسلاميات) صمتوا، كأن لم يسمر في نواديهم، وإعلامهم، ومدنهم سامر... وفي هذا السياق وضعوا قاعدة (اشتم الإسلام تربح جائزة).



وكثيراً ما تطغى الرغبة في التشويه على دعاوى الديمقراطية، وعلى الاستجابة المستنيرة الأمينة لمطالب الواقع، فمنذ قليل رفضت اللجنة المختصة في الأمم المتحدة اقتراحاً بإلغاء عقوبة الإعدام، على مستوى عالمي، رفضت الاقتراح بأغلبية كثيفة ذات حجة قوية.. يضاف إلى ذلك: أن الجريمة تتصاعد وتتكاثر في الحقبة الأخيرة على نحو بالغ الترويع.. وعلى الرغم من هذه الحقائق والوقائع التي تقضي بمزيد من الحزم مع الإجرام والمجرمين فإن الهجّائين ما برحوا يخصون الإسلام وحده بالتشنيع على عقوبة قتل القاتل.

إن الحملة على الإسلام، ابتغاء (تشويه صورته) واسعة النطاق، متعددة المجالات والميادين، متنوعة الأساليب والصيغ، والأشكال وصور الإخراج.

وليس هناك أي حجة معقولة وشريفة تسند استراتيجيات التشويه والتشويش هذه.. هل يُشوه الإسلام لأنه مجّد الأنبياء والمرسلين السابقين جميعا، وقدمهم في أبهى صورة؟.. ألأنه حرر العقول من هلوسة الفلسفات القديمة، وحفزها إلى النظر الموضوعي في مشاهد الكون حفزاً أدى إلى إرساء أصول النهضة العلمية الحديثة؟ ألأنه جعل العقل مناط الخطاب الديني، لئلا تدلف الخرافات والأوهام إلى التفكير الديني؟ ألأنه سوّى بين البشر جميعاً في أصل النشأة والتعامل العام دون حساب

للألوان والأعراق الفرعية؟ ألأنه رَحِمَ الناس بالعفة الخلقية من جائحات الفساد، وأوباء الانحراف؟ ألأنه قرر أن الكوكب الأرضي فندق، متعدد الأجنحة، فسيح الأروقة، يتسع لساكني بني آدم جميعاً: مسلمين وغير مسلمين؟ ألأنه دين يجعل الحوار مع الآخرين أمراً من أعظم عزائمه ومقاصده؟ ألأنه حمى الأقليات غير المسلمة في المجتمعات المسلمة من الظلم والعسف والاجتثاث؟... ثم ماذا لو فكر مسلمون بناء على رخصة: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾.. ماذا لو فكروا وقرروا إنتاج مسلسلات تقبّح الغرب والغربيين؟.. أهذا هو الوضع الإنساني الراقي الذي يريده الغرب؟

لئن أسهم مسلمون في تشويه دينهم.. فإن جهات غربية عمدت ـ بهذا وبغيره ـ إلى تشويه (صورة الإسلام).. هذه حقيقة ينبغي أن تكون في الحسبان.

جريمة أو كلاهو ما
قتل للبشرية كلها

كيف يُتصور الوضع لو كان (انفجار أوكلاهوما) نووياً، بمعنى أن القتلة الذين اقترفوا هذه الجريمة الهمجية، كان يملكون (سلاحاً نووياً) مصغراً ومكيفاً مع هذا النوع من العمليات؟

مجرد تخيل الأمر، يملأ النفس فجيعة ورعباً، ولكنه مع ذلك احتمال غير مستبعد.

هل كان (نوبل) يتخيل - وهو يخترع المتفجرات ويطورها -: أن يُستعمل اختراعه ويُوظف في تفجير مبنى أوكلاهوما، وفي تدمير غيره من العمران المدني الذي يعمره بشر: يموتون ويشوهون تحت أنقاضه.

ومخترع غاز (الساري) وهو غاز يخزن عدد من الدول كميات كبيرة منه في ترساناتها العسكرية - هل كان يتخيل هذا المخترع أن يُستخدم اختراعه في خنق الناس وقتلهم في أنفاق المترو في اليابان، على يد أعداء للإنسان، قيل إنهم من أتباع جماعة (الحقيقة المطلقة) في اليابان؟ (أية حقيقة مطلقة أو نسبية هذه؟!!).

وعلى المتسرعين بالنفي لهذه الاحتمالات، من ذوي الرؤية المشوشة وقصيرة المدى: أن يتبصروا في هذه الوقائع ذات المغزى الواقعي المحزن والموجع:

بتاريخ ٢٢/٤/١٩٩٤م.

أ ـ إن عصابات (ترويع البشرية) قد اجتذبت إلى صفوفها شرائح من ذوي المؤهلات العالية في الكيمياء والفيزياء والكهرباء ونظم الكمبيوتر، وفي التقنيات متنوعة الوظائف والأداء.

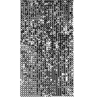
ب ـ ومن خصائص التقدم التقني: تصغير أحجام الأشياء: كيف كان حجم المذياع بادئ ذي بدء؟ وكيف هو الآن؟ ثم أولم يتوصل التقدم التقني إلى دغم ملايين المعلومات في مثل طابع البريد؟

جـ ـ إمكان اختراق نظم المعلومات الدفاعية، وهو إمكان رأى الناس نماذج واقعية منه غير مرة.

د ـ (ألان فاي ماي) ـ الجاسوس الذري المعروف ـ قدم للعلماء السوفيت، في يوم ما (أنبوبة) صغيرة تحمل عينة من اليورانيوم، مصحوبة بمعلومات عن الطاقة، وعن انشطار الذرة.. ومعنى ذلك: أن سرقة أسرار أخطر الأسلحة أمر مستطاع، وأن هذه السرقة يمكن أن تمارسها العصابة كما تمارسها الدولة.

إنه لمن المفارقات الغريبة: أن يفرط الخيال العلمي في توقعات من نوع آخر: توقعات هجوم كائنات من الكواكب الأخرى، على الإنسان ومدنيته، في كوكبنا الأرضي بقصد سحق الإنسان وتدمير مدنيته.

يفرط الخيال العلمي في هذا المجال، ويخرج أفلاماً طويلة ومسلسلات متتابعة تركز على الخطر القادم، في حين أنّ توقع أن تلعب عصابات إجرامية بمصائر العالم، من خلال امتلاكها أسلحة نووية، وجرثومية فاتكة.. مثل هذا التوقع غفل عنه الخيال العلمي،



كما غفل عنه صانعو القرارات السياسية والاستراتيجية، أو لم يجد حظه من التقدير الكافي والخدمة المكثفة على الرغم من أن هذه الاحتمالات والتوقعات تظفر بأنصبة كبيرة من الجدية والواقعية.

إن هذا العالم يمكن أن يدمر من داخله، من صميم أحشائه، وليس بواسطة هجوم متخيل يسقط علينا من كوكب آخر.

ولسنا نقول هذا الكلام تحت تأثير الذهول بما جرى في أوكلاهوما.

وهو تأثير لا نحسب أن إنساناً ذا عقل وضمير قد تجرد منه.. لقد قلنا مثل هذا الكلام في لحظات مختلفة.. لحظات هدوء وتفكير وتأمل في فوضى العالم، وعقم الرؤية الاستراتيجية، ومصائر البشر.. فمنذ ٢٥ شهراً، كتبتُ في هذا المكان[1]: «قد لا تعود الشيوعية بحجمها وتأثيرها السابقين، ولكن من المحتمل أن يظهر مثيل لها: فلسفي وفكري وسياسي وحركي بتحوير في النوع وتغيير في الصورة والإخراج، أو يظهر ما هو أسوأ منها من حيث التصوير المظلم للواقع القائم، والتحريض المطلق على نسفه، ومن حيث القدرة على (التعبئة العلمية) بعوامل التوتر والتذمر والسخط، ومن حيث مضاعفة كم العنف والبطش، ومن حيث التنظيمات السرية ـ ذات الشكل العلني الرمزي ـ المزودة بتقنية عالية في الاستخدام النووي الجزئي، ووسائل الضغط والتخريب ، وأساليب تجميع الناقمين في العالم كله ـ على اختلاف بواعثهم ـ في شبكة عالمية، تهدد الأمن الدولي، واستقرار الأنظمة، ومدنية الإنسان.. إن الخيال السياسي

(١) نشر المقال في الشرق الأوسط في ١٩٩٣/٣/٣ بعنوان (لئلا يفاجأ العالم بما هو أسوأ من الشيوعية).

والغربي والعالمي ينبغي أن يستحضر هذه المخاطر جميعاً ـ ونظائرها المحتملة ـ وأن ينشغل بها».

ومهما يكن من شأن، فإن القضية التي ينبغي أن تقر في الأذهان والأفئدة والعقول ـ والتي ندندن حولها باستمرار، ونبدئ ونعيد فيها دوماً ـ هي: **أن وراء كل جريمة فكرة، فالفكر الشرير هو الجريمة في الطور غير المرئي، والجريمة هي الصورة المادية للفكر الشرير المستتر أو المعلن.**

إن وراء سلوك جماعة (الحقيقة المطلقة) في اليابان فكرة.. ووراء سلوك الفرقة الداودية في أمريكا فكرة.. وسيكون وراء كل جريمة أخطر وأشنع ـ في المستقبل ـ فكرة، فالفكر الشرير يتناسل بكثرة، مع تنوع في الصورة والأشكال التي تعبر عنه وتترجمه في الواقع.

لقد سقطت الشيوعية، وأعقبها (استرخاء رأسمالي) مغرور وكساد في الضمير الديني ـ في الجملة ـ ومن هنا، فإن العالم يمر الآن بحقبة متعبة جداً من الميوعة، والسَّيَحان، والفوضى الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والروحية.. وهذه أجواء تنشئ الفكر المجنون، أو تزيده طيشاً وحدّة.. وليس هذا تسويغاً لما يقدم عليه المهووسون من جرائم مروعة، فقد خلت الأرض كلها من أية حجة تسوّغ مثل هذه الأعمال.. ولكنا نقول: إن هذه الفوضى الضاربة هي (المستنقع) الذي تتوالد فيه جراثيم الأفكار المدمرة، وليس يوجد حل لذلك غير حل تجفيف المستنقع وتنظيفه.. وهذا من أهم البدائل العلمية والحضارية، ومن أجود الاستراتيجيات التي تهيئ المناخ الصحي لفكر

صحي، يطرد ـ بالتدريج ـ الفكر العدواني الشرير.

إن وراء جريمة أوكلاهوما فكراً يؤمن بأن العنف هو طريق التغيير، وهو فكر مدمر على كل حال، والدليل على ذلك: صورته المادية التدميرية.. حقيقة ماذا يفعل الإنسان في هذه الحياة؟ أيتحرك ويمشي إلى عمله داخل مصفحة؟ وحتى لو فعل ذلك فإنه حين يترك مصفحته ويذهب إلى مكتبه، قد ينسف مكتبه من فوق أو من أسفل، وحتى لو نجا من ذلك، فإن نفثة من غاز (الساري) يحملها الهواء إلى أنفه، وفمه ورئتيه، كفيلة بقتله أو إصابته بعلة.

إن لهؤلاء في منهج الإسلام حكماً معروفاً وهو أنهم بفعلتهم هذه قد قتلوا الناس جميعاً ـ نحو ستة مليارات إنسان ـ وذلك بنص الآية: ﴿.. مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. والمفهوم الكلي الواضح للآية هو: أن قتل نفس واحدة يساوي قتل الناس جميعاً، وأن المحافظة على نفس واحدة تساوي المحافظة على الناس جميعاً، وذلك أن كل إنسان إنما يمثل (النوع) كله، ومن هنا، فإن الاستهتار بحياة إنسان، قاعدة فكرية، وعملية للاستهتار بحياة الناس أجمعين.. ثم إن التنكير ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ ينتظم مطلق نفس بشرية، بغض النظر عن العرق أو الموطن أو الدين.

ولكن من الفاعل؟

كانت الرئاسة الأمريكية تمارس مسؤوليتها حين كفت عن التلويح بشيء في مجال الاتهامات، بل تعمد كلينتون أن يقول: «يجب ألا نستبق نتائج التحقيق، ويجب أن نكف عن الاستنتاجات المتعلقة بالأوطان،

والجنسيات والأديان، وعلينا أن نتثبت، وأن تُحصر الجريمة في الفاعل أو الفاعلين».. وهذا منطق مسؤول توجبه مقتضيات شتى منها: أن الإعلام لا يمكن أن يكون ديَّانا وقاضياً، وأن المجتمع الأمريكي يموج موجاً بالغضب العاصف الذي قد تفجره ـ بلا حساب ـ اتهامات غير مسؤولة وغير أمينة، وأن هذا المجتمع نفسه (مَجْمَع) أمم وأعراق وديانات مختلفة، أو كما قال توماس جيفرسون من قبل: «إن رجل أمريكا هو الساكن الأصلي والمهاجر» وهذا النسيج لا يبقى متماسكاً إلا بالابتعاد الإرادي الواعي عن استغلال الأحداث لتوجيه التهم بالجملة وبسرعة إلى هذه الشريحة أو تلك من شرائح المجتمع الأمريكي.

لكن على الرغم من هذا الموقف المحسوب بدقة، والمُراعىَ فيه: وضع الأمن الاجتماعي الأمريكي، على الرغم من ذلك خرجت من إسرائيل ـ كالعادة ـ إيحاءات لا يمكن أن توصف بالنزاهة، إذ لوّح صهيونيون عديدون بالاتهام إلى جنسيات وديانات معينة، وهذا موقف مفهوم من الذين يستغلون دوماً هذه الظروف لتوزيع الاتهامات التي تخدم أهدافهم. بكف النظر عن مسار التحقيق.. مفهوم موقف هؤلاء، ولكن أعاريب من العرب ساروا في ذات الخط!! متجاهلين أمانة المهنة، والحس القومي وضوابط القانون، واللوازم القضائية في مجال الأداء الإعلامي.. إن هؤلاء شركاء في حملة التهديد التي شنت ضد الجاليات العربية والإسلامية ـ في أمريكا ـ في أعقاب حادث أوكلاهوما.. وهذا نوع آخر من التفكير الإجرامي.. فأمامنا الآن جريمتان جريمة التفجير والقتل، وجريمة تجريم أبرياء قبل أن تظهر نتائج التحقيق.

الأدمغة المفخخة

رُشّح (الدلفين)، لأن يكون (كائناً مفخخاً)، يُدرب على تتبع الغواصات المعادية، والاحتكاك بها، والانفجار فيها (سرعة الدلفين ٤٤ كم في الساعة + تقبل هذا الحيوان للتوجيه).

وما يُفعل مع الدلفين، يفعل مع الإنسان، ولكن باختلاف اقتضاه الفرق بين الدلفين والإنسان. فالدلفين لا يدري، لأنه لا يعقل، ولذلك كان جسده هو (المنطقة المختارة للتفخيخ)، في حين أن تفخيخ الإنسان، تركز على (منطقة الدماغ)، وهي منطقة بالغة الحساسية، موفورة القيمة، عالية السيطرة، شديدة التعقيد.

فهذه المادة الناعمة الهشة ـ التي تسمى المخ ـ هي (قوام) الجهاز العصبي وعماده ومركزه، الذي تؤلف خلاياه وامتداداتها ومحورها الأسطواني ١٦ ألف مليون وحدة عصبية.

ولهذا الجهاز الدقيق الرائع وظيفتان رئيستان: وظيفة الإدارة العامة لحركة الجسم وعمله وأداء أعضائه.. والوظيفة المعنوية المتمثلة في الإدراك والتفكير والتذكر والذكاء ووزن التصرفات المعنوية.

بتاريخ ٢٥/١١/١٩٩٥م.

وقد يصاب هذا الجهاز بـ (تلف) عضوي، يؤدي إلى حدوث خلل واضطراب في الوظائف المنوطة به: تيسيراً وأداء وضبطاً.

وكما يصاب هذا الجهاز بتلف عضوي، يصاب بـ (تلف) معنوي، يفضي إلى اضطراب في التفكير والتقدير والنزوع والسلوك.. وقد يكون التلف ـ مثلاً ـ ضموراً في وجوه معينة من النشاط الشعوري.

وهذا موضع الشاهد والاستدلال.

موضع الاستدلال هو (المنطقة المعنوية) في الدماغ الإنساني، و(استغلال حالات الاضطراب في هذه المنطقة في تفخيخ الأدمغة البشرية).

وما التفخيخ المَعْنيّ؟

الفخ ـ لغة ـ هو: المصيدة، فالتفخيخ ـ من ثم ـ هو أن **(يُجعل الدماغ البشري مصيدة وكميناً) لبلوغ أهداف فكرية أو اجتماعية أو سياسية.. أما (العبوة) في الكمين فهي (أفكار ذات قوة تدميرية) عالية.**

ويُنزع التجريد عن هذا المفهوم، أو يعزز هذا المفهوم، بمنطق عملي ذي مركب خماسي:

أ ـ أن هناك من يعمل ـ بالفكر والسياسة والشحن النفسي ـ على (تفخيخ الأدمغة البشرية).

ب ـ أن هؤلاء يستغلون حالات موجودة من اضطراب التفكير

والتقدير في منطقة الدماغ ـ نعم موجودة، أي أنهم لم يصنعوها بأيديهم، فالاستغلالُ وظَّف الاستعدادَ، ولم يوجده.

جـ ـ حتى في حالة عدم وجود رجّة اضطراب، يعمد ناس من الناس، إلى إحداث زلازل ورجات في منطقة الدماغ، تمهيداً لتفخيخها.. وتستخدم في إحداث هذه الرجات: دراسات نفسية، وتعبئات فكرية، وإحباطات سياسية واقتصادية، وحملات إعلامية عنيفة الوطأة والتأثير، واستدراج بالدين.

د ـ أن تفخيخ الأدمغة البشرية، أشد تعقيداً، وأعصى على الحلول العادية، وأبعد عن التفسير بسبب غموضه. فكوكبنا هذا يموج بحركة، قوامها أكثر من ستة آلاف مليون إنسان، في تلافيف دماغ كل واحد منهم (أفكار) لا يعلمها أحد.. من هذه الأفكار ما هو نواة للعلم، وإضافة للمعرفة، وتعبير عن الحق والخير والجمال، ومنها ما هو قابل أو معد للتفخيخ.

هـ ـ أن تفخيخ الأدمغة، ربما كان بديلاً للحروب، أو لبعض الحروب، وهو ـ في الوقت نفسه ـ لا يتطلب أعباء مالية باهظة.

إن إيثار المنهج أو ارتفاقه دوماً، هو الذي اقتضى إيراد هذه النقط، وإلا فإن الشواهد والقرائن والبراهين ـ على تفخيخ الأدمغة ـ متوافرة مستفيضة.

قاتل إسحاق رابين ليس بعيداً عن المؤسسة العسكرية الأمنية الإسرائيلية، بل هو ذو روابط وثيقة مع هذه المؤسسة، وهذا أحد

أسباب الاطمئنان النسبي إليه، ولكن الخطر جاء منه، إذ هو (دماغ مفخخ) انفجر في الوقت المحدد، ولقد قيل في تفسير دوافعه: إنه من الشريحة التي تدرك المخاطر التي تنطوي عليها عملية السلام - بالنسبة لإسرائيل!! - ولذلك عاجل رابين فقتله.

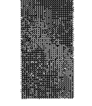
وهذا التفسير هو (العبوة) الفكرية في ذلك الدماغ.

وأولئك الذين فجروا المبنى الاتحادي في أوكلاهوما، هل وفدت فكرة التفجير إلى خاطرهم بغتة، في ذات اليوم، أو ذات الأسبوع؟ الأمر ليس كذلك، لأن عملاً كبيراً ومخططاً كهذا لا تتم القناعة به في لحظات معدودة. فتفخيخ السيارة، مسبوق بتفخيخ الدماغ، أو هو نتيجة لدماغ فخخ على مكث، أو عبر مدة جرت فيها عملية التفريغ والشحن والتفخيخ.

هل تتطلب القضية مزيداً من الأدلة والأمثال؟

لا بأس.. وهذا هو المزيد:

١ـ من أسباب (العنف العائلي): (دماغ مفخخ) يحمله الرجل ضد المرأة - في الغالب - فخميرة هذا العنف: النظرة الرديئة إلى البنت، والتطير من وجودها في هذه الحياة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.. فالحكم السيئ ترجمة للتصور السيئ المتمدد داخل الدماغ.. وهذا ينطبق على أقوام كثيرين في هذا العالم: مسلمين وغير



مسلمين. فعلى الرغم من دعاوى الغربيين في إنصاف المرأة، فإن أدمغة كثير منهم مفخخة ضدها.

٢ـ والجريمة المنظمة، تعبير عنيف وعاصف عن أدمغة شحنت بالكراهية، والانتقام.. والنفور الشديد من التكيف مع السياق النظامي العام للحياة.. واللهفة على الكسب السريع الكبير بغير شرائطه أو وسائله المشروعة.. والتزيين المكثف المتتابع للتعاون على الإثم والعدوان.

٣ـ ومن ذوي (الأدمغة المفخخة) أولئك الذين يكذبون لمصلحة الشانئ، حتى لا يفتضحوا، إذا افتضح، وإنما يحمل هؤلاء أدمغة مفخخة، لأنهم في ذات اللحظة التي يُطمأن إليهم فيها، يستدرجون الأمة إلى الكمين والفخ، فتصطدم بالألغام التي تؤذي معنوياتها ومادياتها.

٤ـ ومنهم الذين يخلطون بين الإسلام وبين من يحمل اسمه ولم يتقيد بمنهجه. فهؤلاء يركزون ـ مثلاًـ على (الإرهاب) ملصقاً بالإسلام وحده، وبالمسلمين دون غيرهم من الأمم والشعوب.

٥ـ ومنهم الذين يتصورون أن الطريق إلى تطبيق الإسلام ونصره هو (العنف).. في حين أنه من الثوابت المقررة: أن العنف لا يأتي بخير أبداً، ولو كان فيه خير، لهدت إليه الشريعة التي لم تدع باباً من أبواب الخير والإصلاح إلا فتحته بالنص أو بمقاصدها وقواعدها الكلية، بيد أن الشريعة هدت إلى نقيضه وهو (الرفق)..

فالرفق ـ لغة ـ ضد العنف.. ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**». ومن هنا، فإن العنف (تفخيخ للدماغ) يتوخى ـ ولا وزن لحسن النية ها هنا ـ تفجير الأمة ذاتياً، وانفجار العالم في وجه الأمة..

٦ـ ومنهم الذين يتصورون أن الاستقرار والأمن والهناء والراحة والسعادة والتقدم والنماء، أمور لا تتحقق إلا بإقصاء الإسلام، وطي راياته، وتجفيف منابعه.

بقي أن نتعرف على خصائص هذه الأدمغة المثقلة بالنُّذُر.. فمن خصائصها:

أ ـ الجهل وفقدان العقل.. في مطلع المقال، عُقدت مقارنة ـ مع المفارقة ـ بين الإنسان والدلفين. وهنا نقول: إن الإنسان يقترب من الكائنات الأخرى، بمقدار ابتعاده عن منطقة العقل: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**﴾.

ب ـ إرادة الإفساد مع ادعاء الإصلاح: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾.

ج ـ تبييت النية على الشر: ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾.. فهؤلاء قوم قرروا اغتيال نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ كما قرروا التنصل من دمه بالاتفاق على القول لذويه: إنهم ما علموا من أمره شيئاً!!

د ـ المكر (وهو تفكير مظلم ذو نزوع تدميري).

ـ ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.. ومن معاني النص: أن الشريرين يمكرون بالناس بالليل والنهار، وكأنهم احترفوا التفكير الهدام في أدمغتهم المبرمجة على الشر.

ـ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ ـ والكُبّار هو الأمر العظيم المسترسل في الكبر والتضخم. فهم يمكرون بإسراف كمي ونوعي، وعلى أطول مدى مستطاع.. وهدف المكر هو إشقاء الناس، وحرمانهم من السعادة.

ـ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.. فالدماغ الفاسد، يمعن في المكر، حتى ليكاد مكره ـ من شدته وإحكامه ـ يتحول إلى قوة مادية تزيل الجبال الشم من مواقعها.

إذن، الأدمغة هي مراكز الاستقبال والتوجيه في الإنسان، وهي تتلف معنوياً ـ كما تتلف مادياً ـ، وحين تتلف معنوياً تصبح منطقة مهيأة للشحن والنفخ والتفخيخ.. فالأمن الحقيقي ـ من ثم ـ يبدأ بـ (الدماغ) ، وينبغي بناء على ذلك: أن تغير برامج كثيرة لا تعمل ـ حتى الآن ـ بعلم وجد في هذه المنطقة الحيوية. وليس يعني البدء من الدماغ: الإسراف في حسبان الجانحين مرضى، ولا المسارعة السهلة إلى الأساليب التقليدية، مثل عمليات غسيل المخ، فهذه جهود محفوفة بمحاذير إتلاف الأدمغة أيضاً، يضاف إلى ذلك: هزال النتائج وعقمها. بل المقصود بالبدء من الدماغ: عمل رشيد متحضر، يجعل مناط أمره: إطلاق طاقة التفكير السوية بوسائط

التعليم والثقافة والإعلام. من خلال سيادة المنهج الصحيح العام، بمعنى أن يكون الشعب والحاكم على منهج واحد، يصلح التفكير والاعتقاد والسلوك، ويطيعه الجميع بمحبة ورضى، وأن يكون الرابط بين القيادة والأمة هو رباط العقل والعدل والأخوة والتشاور والتناصح والتناصر والتعاون والتراحم. فهذا هو المناخ الصحي النقي الذي لا تعتل فيه الأدمغة ولا تضطرب.

وكلمة التمام:

أ- أن التركيز على قضية الدماغ - وهي قضية داخلية لا تُرى - لا يطلق الشك في كل أحد. فالضمير الإنساني منطقة لا يحل لأحد أن يهدر حرمتها، ولا يستطيع أحد ذلك ولو أراد. فهدف التركيز هو تكثيف الضوء على هذه القضية.

ب - ينبغي أن يظفر مقصد (حفظ العقل) - في شريعة الإسلام - باجتهاد موسع. إذ ليس يكفي في هذا المقصد أن يقال: إن الشريعة صانت العقل من المسكرات وما في حكمها. فمن صيانة العقل: تأمينه من تفخيخ الأدمغة ضد الدين، ومن تفخيخها باسم الدين.

جـ - أن المنطقة مقبلة على حقبة قد يستعمل فيها تفخيخ الأدمغة على نطاق واسع[١].

---

(١) وقد كان.

الفكر السياسي (المفخخ)
ووضع (غير المسلمين)
في (الدولة الإسلامية)

من التمثل الجيد للأحداث، بل من الاعتبار الضروري بها: اتخاذها مدخلاً لمعرفة حقائق تقي من مثلها. وفرصة لتصحيح مفاهيم ينبغي تصحيحها دون تسويف، حيث إن الحدث نفسه، هو اللحظة الراهنة والمنشطة التي تحرر الوعي والإرادة من التباطؤ والتسويف.

فحدث التفجير في الرياض، وحدث التفجير في الخبر، استهدفا ـ ضمن ما استهدفا ـ (الوجود الأجنبي) أو (الوجود الأمريكي) على وجه التحديد.

وهذه قضية مفاهيم، أو ذات علاقة بالمفاهيم.. فإذا كان للبحث الجنائي طريقه وأسلوبه في التعامل مع القضية، فإن للقضية نفسها ضلعاً، أو جذراً فكرياً، يتمثل ـ سلباً أو إيجاباً ـ في (مفهوم وضع غير المسلمين في الدولة الإسلامية).

ومن هنا، فإن الحدث الجلل، ينبغي أن يكون مناسبة لاجتلاء المفهوم الصحيح في هذا الجانب من القضية. وإماطة المفاهيم الخاطئة البور. وإلا فإن الحدث يمر، دون فتح هذا الملف المثقل

بتاريخ ٢٥/١١/١٩٩٥م.

بالتصورات المضطربة، ودون جر الوهم والغموض إلى دائرة التفكير العلمي، والضوء الساطع.

وللجانب العلمي والفكري في القضية قاعدتان: عامة وخاصة:

أولاً: القاعدة العامة.

ومفتحها سؤال: لماذا جاء الإسلام؟

الجواب - في إيجاز - هو: أن الإسلام جاء لتوفير الأمن للإنسان في داخله: في قلبه ونفسه وروحه، من الخوف والقلق.. جاء لتأمين هذه المنطقة المعنوية في الإنسان بالإيمان بالله.. وجاء الإسلام لتوفير الأمن للإنسان - في محيطه الخارجي - من المخاطر والاعتداءات على النفس والمال والأهل والولد، وما يتبع ذلك ويقتضيه من مسكن وطريق .. إلخ. وبهذين الأمنين يستطيع الإنسان أن يعبد ربه بسلام، وأن يكدح ويبني ويعمر ويبدع بسلام.. ويشمل هذا الأمن - في محور من محاوره - غير المسلمين . إذ لا يستطيع مسلم - معه عقله وتقواه - أن يقول: إن الأمن العام حكر للمسلمين دون سواهم من الناس: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.. إن المشرك نفسه، يجب أن يكون آمناً.

ثانياً: القاعدة الثانية هي (مفهوم التعاون والتعامل بين المسلم وغير المسلم في الدولة الإسلامية).

ولئن ضرب المثل بالأمريكيين ـ هاهنا ـ فلأنهم استهدفوا بالعدوان وإلا فإن المفهوم ـ الذي سنبسطه ونفصله ـ يشمل غيرهم ممن هم في حكمهم.

وإذا كان الغموض الكهنوتي، والوسواس الخناس هما (مقتلة) الفكر، وجحره الذي تخرج منه الأفاعي والعقارب، فإن الضد المقابل ـ واللازم ـ هو: أن يكون مفهوم التعامل واضحاً سافراً، مثل ضوء الشمس، في جو: تناهى في الصفاء والصحو.. وهذا هو مبتدأ العلاج ومرتكزه، في هذا الجانب من القضية.

ولذا فإننا ندير هذه المقالة على الصراحة التامة.

وبهذه الصراحة نسأل: **هل الأمريكيون قوم محاربون للسعوديين؟**

إن حالة الحرب في الإسلام مركبة من مفهومين:

١ ـ أن يحاول طرف ما، فتنة المسلمين في دينهم، بمعنى أن يعمل على منعهم من الاعتقاد الصحيح، ومن ممارسة شعائرهم، ومن إقامة الشريعة.. يعمل على منعهم ـ في الجملة ـ من طاعة ربهم التي أمر بها ربهم.

أ ـ **﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾**.

ب ـ وهذه الفتنة في الدين هي التي قرر القرآن أنها أكبر من القتل وأشد منه: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.. و﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

٢ـ المفهوم الثاني للمحاربة هو: شن عدوان مادي مسلح.

والحالة ـ بمفهوميها ـ لا تنطبق على الأمريكيين، ومن في حكمهم فهم لا يعملون على فتنة المسلمين في دينهم[١]، ولم يمنعوهم من الإيمان بالله، ولا من ممارسة شعائرهم.. وهذه حالة لها (تكييف) واضح في فقه المسلمين.. يقول ابن تيمية: «فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله، لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه».

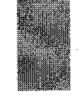
وهذا التكييف مسنود واقعياً ـ الآن ـ بدليلين:

أ ـ الدليل الأول العام هو: وضع المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. فالمسلمون هناك يمارسون اعتقادهم وشعائرهم بحرية، ولم نعلم أنهم يفتنون في دينهم ـ بالمعنى الآنف ـ بل إنهم ليدعون إلى الإسلام، وأن أناساً أمريكيين ـ من شتى الطبقات والشرائح ـ يستجيبون لهذه الدعوة.. وبدليل أن هذا الوضع لم يكن فلتة، ولا ثمرة (مزاج) رئيس بعينه، أو إدارة بذاتها، وإنما هو وضع، أثمرته طبيعة الكيان الأمريكي: الاجتماعية والثقافية والسياسية، وهي طبيعة منبثقة عن الدستور الأمريكي الذي ينص على (حياد) الدولة تجاه الأديان كافة.

ب ـ الدليل الثاني الخاص ـ أي بعلاقة الأمريكيين بالسعوديين ـ

---

(١) هذا خط أحمر، ينبغي أن يتواطأ عقلاء أمريكا وحكماؤها على عدم تجاوزه.



هو: أن المملكة العربية السعودية ـ دولة ومواطنين ـ تباشر الاعتقاد والإيمان والشعائر التعبدية، وإقامة الشريعة في ظل العلاقة السياسية والتجارية مع الولايات المتحدة.. هذه هي الحقيقة الكبيرة الماثلة التي لا يماري فيها إلا شخصان: شخص مختل العقل، وشخص يحركه الهوى وحده، فهو صريع هواه.. هذه هي الحقيقة الناصعة، سواء امتنع الأمريكيون عن هذه الفتنة من تلقاء أنفسهم، وبموجب دستورهم، أم لعلمهم اليقيني بأن السعوديين لا يقبلون ذلك أبداً، ولا يضعون دينهم الغالي الحنيف، موضع مساومة، ولا موضع مقايضة.

وإذا شئنا تصعيد التفكير قلنا: إن نظام الحكم في السعودية مستمد من شريعة الإسلام: وهو نظام صاغته الدولة بحرية، واستقلال تام.. نظام من المقطوع به أنه لم يُمل ـ قط ـ لا في عبارته، ولا في مضمونه من الأمريكيين أو غيرهم، أي أنه مبرأ من كل أثر من آثار الفتنة في الدين: مصدراً وتلقياً.. دعوة واستجابة.

ولئن انتفت حالة الحرب ـ في مفهومها المعنوي ـ فإنها منفية في مفهومها المادي. فليس بين السعوديين وبين الأمريكيين (حالة حرب) بمعناها المادي، فهم لم يشنوا على السعوديين حرباً.

وبانتفاء حالتي الحرب: المعنوية والمادية، تتقرر حقيقة أن الأمريكيين ليسوا (قوماً محاربين للسعوديين).

ونفي (الصفة الحربية) العدوانية، ينقلنا مباشرة ـ في ضوء هدي الإسلام ـ إلى وضع آخر. وضع (المسالمة والموادعة والمعاهدة). وهو وضع نظري وعملي، أو حكمي وحقيقي.. أما الحكم فهو هدي الإسلام في هذه القضية. وأما الحقيقة فهي العلاقة القائمة بين المملكة وأمريكا.

إن لوضع المسالمة والموادعة والمعاهدة، أحكاماً ومفاهيم ينبغي أن تعرف ـ معرفة كلية وتفصيلية ـ وأن ينضبط بها الفكر السياسي والعمل السياسي، انضباطاً يوجبه الإسلام، ولا يأذن بالانفكاك عنه قط.

من هذه الأحكام والمفاهيم:

١ ـ أن الأصل في العلاقة (السلم).. يقول ابن القيم: «فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم، استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين. وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه، فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه، امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾...».

إن السبب الأكبر للحروب الدينية الظالمة في التاريخ هو: إكراه الغير على الدخول في دين المحارب. ولما كان الإسلام قد أبطل الإكراه في الدين، فإنه أصّل ـ بذلك ـ العلاقة بين الناس على أصل السلام، لأنه إذا كان لا يجوز أن تقوم الحرب من أجل إكراه الناس

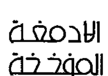
في الدين، فإنه لا يجوز ـ من باب أولى ـ أن تقوم الحرب لإكراه الناس على أمر آخر دون الدين.

٢ـ في ظل (السلّم) الأصلي، ينشأ ويترسخ التعامل والتعاون الإنساني العام الذي هو مقتضى التعارف **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**.

٣ـ فإذا قام التعاون، ووثّق بعهود ومواثيق، لزم الوفاء المطرد الصادق بهذه المواثيق، فـ(خلق) الدولة الإسلامية ضمان جازم حازم لهذه العهود والمواثيق: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾**.. ضمان يعزز الالتزام بالقانون الدولي العام.

٤ـ وبهذه العهود تُعصم الدماء والحياة من الهدر والانتهاك.. وتعصم ـ كذلك ـ بهذا الحديث النبوي ونظائره: «**من قتل معاهداً، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً**».. وتُعصم بالأحكام العظيمة المستنبطة من الشريعة، ومنها: قول ابن تيمية: «إن الأصل أن دم الآدمي معصوم لا يقتل إلا بالحق، وليس القتل للكفر من الأمر الذي اتفقت عليه الشرائع ولا العقول»..

ومن هنا، فإن سفك الدماء المعصومة، لغير المسلمين في تفجير الخبر (وإن كان العدوان قد آذى آخرين: سعوديين وغير سعوديين).. إن سفك الدماء المعصومة هذا، جريمة فاجرة مركبة،



فهي انتهاك لحرمات الله وشرعه، وخروج على النظام العام ونقض للعهود، وقتل للمسالمين، وإفساد في الأرض، وتشويه لسمعة الإسلام. فالفعلة مجرمون حتى بمقياس الحرب ـ الذي يجيز ما لا يجوز أحياناً ـ إذ حرم الإسلام ـ في أثناء الحرب نفسها ـ الخيانة والغدر والتمثيل وقتل الطفل والمرأة وكبير السن، وحرم الإتلاف والتحريق، بل حرم إيذاء الشاة والبقرة!!..

أما في الحياة المدنية العامة، فقد دعا الإسلام إلى اللطف في الاختلاط والتعامل مع غير المسلمين.. فالرسول مات ودرعه مرهونة عند يهودي، ولم يفكر مسلم في تفجير بيت اليهودي الذي ارتهنت درع الرسول عنده.. وكان اليهود يتعاطسون ـ في مجلس النبي ـ رغبة في أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول لهم: «يهديكم الله ويصلح بالكم»، وحين شتمت عائشة يهودياً: دعاها الرسول إلى الرفق في القول: وقد مكّن الرسول وفد نجران النصراني من الصلاة في مسجده.

ولقد أدرنا الموضوع على هذا النحو، لأن لابد من نقض «الفكر السياسي» السقيم العقيم الزنيم المفخخ الذي لا يثمر إلا شوكاً وحسكاً وقنابل وعنفاً وتفجيرات.

الحجة ضد الغلو

(الصحة النفسية) ـ تنقيةً من العُقد والعوج وتغذيةً بما يوفر العافية النضرة: من استقامة تفكير، وسلامة اعتقاد، واستواء شخصية، وصلاح بال، وتوسط عمل وسلوك، ونظرة اعتدال للحياة والمجتمع والقيم والناس، ورشد في المقاييس والأحكام، ورحمة ورفق بالآخرين، ومحبة الخير لكل أحد ـ هذه الصحة النفسية، من أولى وأجل المقاصد التي جاء الإسلام لتحقيقها، بل هي المقصد الأول والأسمى بإطلاق (وإن كان خطاب المسلمين المعاصر قد قصر في خدمة هذا المقصد: غفلةً، أو غرقاً في السياسة، أو استهلاكاً للطاقة في مدافعة الخصم، أو استخفافاً غير علمي، وغير واقعي بالغلو).

وحقيقة أن المقصد الأول للإسلام هو: توفير الصحة النفسية للإنسان على هذا النحو، إنما هي حقيقة ذات دلالتين: دلالة نفاذ المنهج وتوجهه إلى الجذور وهو يعالج المشكلات.. ودلالة أن الواقع الإنساني يحتاج دوماً إلى هذا النوع من العلاج في الجذر والغور والقلب.

بتاريخ ٤/٥/١٩٩٦م.

إن (ما في الصدور) يعتل ويمرض، كما تعتل الأجسام وتمرض.. والمقصود بما في الصدور هو: القوى المعنوية أو الروحية والنفسية: المعتقد والضمير والوجدان، وأوعية تلقي العلم والمعرفة، ومجامع الوعي في القلب والعقل والدماغ.. وكل ذلك يعتل ويمرض، ومن هنا كان مقصد الإسلام الأول: شفاء الصدور من هذه العلل والأمراض: أمراض الإلحاد، والنفاق، والكبر، والفتنة، والحقد، والضغن، والحسد، والبغي، ونيات الشر والإثم والعدوان، والاحتقار، واللؤم، والوسوسة، ومكر السوء، ومنازع الغلو والعنف.

و(الغلو) من أعتى هذه الأمراض.. لكن من الظواهر الجديرة بالانتباه: أن الغلو لم ينل ـ من حيث الكم والكيف ـ من العناية ما ظفرت به الأمراض الأخرى ، وإن كان التقصير قائماً تجاه هذه وتلك، وهو تقصير متفاوت النسب، وفق تقدير درجة الخطر.

إن الغلو مرض يعل الصدور ويصيبها بالسقم والمرض.. وشفاء الصدور منه مقصد عظيم في الإسلام. فالآيات الآتية تعنيه بلا ريب، وتنتظمه يقيناً، وتهدي إلى الشفاء منه: من أراد أن يشفى.

أ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ب ـ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.
جـ ـ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾.

ومن التكامل المنهجي الوثيق: أن الإسلام الذي عدّ (الغلو) مرضاً ـ ينبغي أن تنقه منه الصدور وتشفى ـ أقام الحجة ـ باستفاضة ـ على بطلان الغلو وقبحه وسوء عاقبة أمره. وهذا من فوائد (مرجعية النص) إذ لولا النصوص الحاسمة في إبطال الغلو، لاستطاع الغلاة أن يجدوا (شرعية) لأوهامهم ووسوستهم. ولكن هيهات. فمنهج الإسلام ـ النّصّي والدلالي ـ ذو قاعدتين كبريين ثابتتين أبداً، متكاملتين باطراد: قاعدة تقرير الحق. وقاعدة إبطال الباطل: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. وكلمة التوحيد، مكونة من مقطعين (لا إله) وهذا إبطال للباطل ونفي له (إلا الله) وهذا إحقاق لحق وتقرير له.

والغلو من الباطل الذي جاءت الأدلة والبراهين لإبطاله ونفيه والدمدمة عليه.. ومن المناسب ـ ها هنا ـ تعريف الغلو ـ وصاحبه العنف ـ قبل إيراد الحجة الغالبة. فالتعريف يعين على فهم الأدلة، وعلى تفهم الحكمة من تقبيح الغلو والنهي التحريمي عنه.

إن الغلو هو: الفوران، والهيجان، والطغيان، والرعونة، والطيش في الحركة واليسر، وهو تجاوز الحد في كل شيء..

أما العنف فهو: الشدة والغلظة، والنزف، والجهل ، وعدم الخوف، وأخذ الأمور بقسوة، وتناول كل شيء بغلظة وتجهم، وركوب المطي ـ أو أي شيء آخر ـ بحمق وطيش، وإتيان الأمور بغير علم ودراية، واعتساف الطريق الوعر وإراقة الدم.. ويُلحظ أن بين التعريفين جواراً وتداخلاً. وهذه دقة في اللغة يزكيها الواقع، فالغلو والعنف قرينان في أغلب الأحيان.. والدقة في اللغة زادها الاستعمال الشرعي رصانة، وضبطاً، ووضوحاً في الحكم.

لقد أبطل الإسلام هذين المرضين ـ الغلو والعنف ـ ودان أهلهما.. وهذه هي البراهين:

أولاً: الدليل على تقرير الحق بتأصيل منهج التوسط والاعتدال:

١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

٢ ـ ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣ ـ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٤ ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

٥ ـ ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾.

٦ ـ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

٧ـ ﴿ربَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

٨ـ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

٩ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

فهذه النصوص، ملزمة بالتوسط. والاستقامة على صراط الاعتدال، وارتفاق الرحمة واللين، والفرار من الشقاء، والانحياز لليسر، والدعاء بإنزال الإصر (الحمل الثقيل) عن الكواهل وبألا يُحمل المؤمنون فوق طاقتهم، والتحرر من الحرج. واجتناب الاقتراحات التي تجلب العنت (وهو العَسْف والإرغام على المكروه).. وهذه كلها مفاهيم تنفي الغلو ـ ضمناً.. فالغلو ـ من ثم ـ محادة ومشاقة ومنازعة لله وكتابه. فالله يقول: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. فيجيء الغلاة فيقولون: «بل نزل علينا القرآن ليشقينا، ونحن نحب أن نشقى به!!».

ثانياً: الدليل المباشر على نسخ الغلو ودحضه.

١ ـ ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾.

٢ـ ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

٣ـ وفي الحديث النبوي:

أ ـ «أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو في الدين».

ب ـ «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

ج ـ «إن من أشد الناس جرماً من سأل عن أمر لم يحرم فحرم من أجل مسألته».

د ـ «إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً».

هـ «خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا».

و ـ «هلك المتنطعون».

ز ـ « يسروا ولا تعسروا. وبشروا ولا تنفروا».

ح ـ «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

وهذه نصوصه مباشرة الدلالة في دينونة الغلو وإنكاره، والإنباء بعقباه النكدة التعسة.. مثلاً: يقول ابن حجر ـ في الفتح ـ في شرح الحديث الأخير: «والمشادة بالتشديد: المغالبة، والمعنى: لا يتعمق أحد (بمعنى يتنطع) في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب. قال ابن المنير: «في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع» .. ولقد رأينا ـ كما رأى ابن المنير ـ رأينا أناساً يشددون على أنفسهم ويتخذون الغلو مركباً. فلم يلبثوا أن تقطعت أنفاسهم من فرط التكلف فإذا

هم بين ناكص على عقبه فكرياً، وتارك للدين، أوغارق في شطحات هي أقرب إلى الهلوسة والوسوسة، أونازع إلى العنف.

ثالثاً: الدليل الضمني على بطلان (العنف).

١ـ إيثار (السلام) في القرآن:

أ ـ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾**.

ب ـ **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾**.

٢ـ إيثار (السلام) في الحديث النبوي:

أـ «**إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام**».

ب ـ «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

ج ـ وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ فقال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**».

وقد أورد البخاري الحديثين (ب ـ ج) في كتاب (الإيمان) وهذا من التوفيق، لأن العلاقة بين الإيمان والسلام وثقى، فالإيمان سلام في المعتقد داخل النفس، وسلام بتأثير المعتقد خارج النفس، أي في البيئة والمحيط.. ومن الآثار التي ذكرها البخاري في هذا المجال ـ تحت عنوان: إفشاء السلام من الإسلام ـ قول عمار بن ياسر: «ثلاث من جمعهن فقد جمع

الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار».

٣ـ مجتمع المؤمنين وخصائصه السلمية في القرآن:

أ ـ ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

ب ـ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾.

ج ـ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٤ـ مجتمع المؤمنين وخصائصه السلمية في الحديث النبوي: «.. **وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

إن هذه الآيات والأحاديث براهين ضمنية على بطلان العنف وقبحه، فالعنف ـ بتعريفه الآنف ـ نقيض السلام، وسلوك شقي شاذ عن مجتمع المؤمنين الرفيق المتراحم.

رابعاً: الدليل المباشر على بطلان العنف وقبحه:

١ـ من القرآن:

أ ـ ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ب ـ ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

٢ـ في الحديث النبوي:

أ ـ «**عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش**».

ب ـ «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**».

جـ «**من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**».

د ـ حتى العنف مع الحيوان ممنوع ومحرم. فقد «لعن رسول الله من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً» أي لعن كل من يتخذ كائناً حياً هدفاً للعنف بالرمي والضرب والقذف.

هذه حقائق يجب الصدع بها ـ قولاً فصلاً، وبلاغاً مبيناً، وعلاجاً للغلو والعنف شافياً ـ وأهل العلم والبصيرة والرشد هم الذين أُخذت عليهم المواثيق بأن يبينوا الحق وألا يكتموه.. وليس يقبل الإحجام عن ذلك بحجة: الخوف من سلامة مسيرة المسلمين، أو الخشية من تمكين خصوم الإسلام من ذريعة يكثفون بها الهجوم على الإسلام.. فهذه مقولات لا تخلو من غلو في الخوف وتقدير الأمور:

أولاً: إن من ضمانات المسيرة : نقد الغلو ونقضه،

والضمان عاصم من ذرائع الشر وليس مفتحاً لها.

ثانيـاً: إن ترك الغلو دون نقض هو الذي يتيح للأعداء أوسع فرصة للخلط بين الإسلام والغلو، ومن ثم تكثيف الهجوم على الإسلام.

ثالثـاً: أن هذه المقولات الناكصة عن تحمل المسؤولية، نقضها منهج القرآن حيث سدد مسيرة المسلمين الأوائل بالنقد والتقويم.. ومن ذلك: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.. ومن مفاهيم هذا النص: أنه لو تجافى الرسول عن المنهج، واتبع آراءكم المتشددة لوقعتم في العنت والمشقة.

ماذا يراد بمصر؟
لا دين..ولا وطنية!!



هؤلاء الذين استباحوا دم الأبرياء المسالمين في الأقصر بمصر.. ما هدفهم.. وما مقصدهم؟

قد يقال: إن الهدف هو: إقامة (الدولة الإسلامية) ـ في صورتها المرتسمة في أذهانهم ـ!

ولكن استباحة الدماء المصونة يستحيل أن تكون وسيلة من وسائل تحقيق هذا الهدف.

أولاً: لأن الله لا يُتقرب إليه بحرام.

ثانياً: لأن من مقاصد الدولة المسلمة: حفظ النفس الإنسانية وحمايتها من القتل والإتلاف.. فكيف يحبط هذا المقصد بدعوى السعي إلى تحقيقه؟!

ثالثاً: لأن استباحة الدم الحرام، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، إنما هو إفساد غليظ في الأرض.

ولقد جرّم القرآن كل إفساد في الأرض تجريماً مطلقاً.. وهذا هو البرهان القاطع الساطع:

بتاريخ ٢٢/١١/١٩٩٧م.

أـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ﴾.

ب ـ ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾.

جـ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

د ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

هـ ـ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

و ـ ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾.

ز ـ ولقد ارتبط قتل النفس ـ التي حرم الله قتلها ـ بالفساد في الأرض: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

إذن: فدعوى إقامة دولة إسلامية بوسائل الإفساد في الأرض هي دعوى باطلة.

باطلة لأن الله ـ جل ثناؤه ـ لا يحب الفساد في الأرض: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

وباطلة لأن الله يحبط عمل المفسدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وقد يقال: إن السائحين ـ من كل جنس ـ كفار يجب قتلهم لذات الكفر.

وهذه أيضاً فرية كبرى على الإسلام.

فالناس لا يقتلون بسبب كفرهم، ولو صح ذلك لجاز قتل النساء والأطفال والرهبان، ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن قتل هؤلاء، ولو صح ذلك أيضاً لما جاز أن يُعاهد الكفار وأهل الكتاب ولا أن يستأمنوا، ولا أن يأكل المسلمون طعامهم، ولا أن يتزوجوا نساءهم، لأنه إذا جاز القتل بسبب الكفر لجاز للمسلم أن يقتل زوجته الكتابية في أول لقاء يجري بينهما في بيت الزوجية، فيكون الزواج ـ من ثم ـ مجرد استدراج للذبح !!.

إن دعوى قتل السياح الضيوف بسبب الكفر، محاولة أثيمة لنسخ الكتاب والسنة.. محاولة لنسخ قول الله تعالى ـ مثلاً ـ: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.. والسياح السويسريون واليابانيون والألمان وغيرهم، لم يقاتلوا المسلمين ـ في مصر ـ في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم. وبانتفاء القتال في الدين، والإخراج من الديار، يثبت

لهؤلاء السياح البر والقسط، وهيهات هيهات أن ينسخ فكر أحمق حرفاً من القرآن.. وهي كذلك محاولة أثيمة لنسخ قول الرسول ـ مثلاً ـ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**».. وهذا دليل حاكم على أن ذات الكفر ليس سبباً في القتل.. وهيهات هيهات أن ينسخ فكر أخرق حرفاً من السنة.

ثم إن في القتلى مسلمين. فكيف يستحل دم المسلمين، امرؤ يؤمن بالقرآن: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾.

وقد يقال: إن سفك دم الأبرياء ـ مسلمين وغير مسلمين ـ نوع من التعاون على البر والتقوى، ولا يستغرب هذا التأويل أو التخريج في حالة انحراف الفكر الديني. فقاتل الإمام علي كان مستغرقاً في ذكر الله!! لأنه كان يتصور أن ما قام به إنما هو قربى إلى الله.. بيد أن الأمة مجمعة على أن سفك الدماء المصونة ليس من البر ولا من تقوى الله.. والتعاون مشروط بالبر والتقوى لا بالإثم والعدوان، ولذا تَكَوَّن سياق الآية من إثبات ونفي أو من أمر ونهي: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾.

وقد يقال: إن باعث هذه الجريمة الصراح البواح هو: الثأر والانتقام. بيد أن الثأر عادة من عادات الجاهلية. فقد قال

المهلهل بعد مقتل كليب:

خذ العهد الأكيد عليّ عمري ... بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس ... ولبسي جبة لا تستعار
ولست بخالع سيفي ودرعي ... إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبيد سراة بكر ... فلا يبقى لها أبداً أثار

الثأر عادة جاهلية، ولا يحل لأحد أن يربطها بالإسلام، ولا أن يمنحها ـ افتراء ـ باعث الجهاد الحق في الإسلام ولا غايته.

وقد يقال: إن الهدف من تلك المجزرة الكريهة هو: تحقيق مطالب معينة من خلال الضغط.

وهذه تعلة عجيبة أيضاً.

أولاً: ما دخل المدنيين الأبرياء، وما ذنبهم في هذا الأمر.. وأي فهم ديني هذا الذي يجعل دم المسالمين ذريعة لتحقيق مطالب سياسية؟

ألم يقرأ هؤلاء قول الله تعالى: ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

ثانياً: لقد حدثت ضغوط من قبل، فما أغنت عن الضاغطين شيئاً.. مثلاً: منذ فترة نصب نفر من هؤلاء كميناً لسيارة أجرة ريفية، واختاروا ١١ شخصاً من الركاب، فحصدوهم حصداً بمائة طلقة من الرصاص، ومع ذلك لم

يتحقق شيء من المطالب.

ثالثاً: إن الإسلام يوجب أن تحسب المصالح العامة بدقة متناهية في كل قول وفعل. ولا يشذ عن هذا الهدي إلا مبتدع آثم يهدر المصالح التي جاء الإسلام لتحقيقها أو هي مقصد من مقاصده العظيمة.. وبدهي أن المصالح العامة هي مصلحة السواد الأعظم من المسلمين، لا مصلحة فئة أو جماعة معينة.. وإذا كانت القاعدة الشرعية هي تحمل الضرر الخاص في سبيل دفع الضرر العام، فإنه ليس من الشرع في شيء: تنكيس هذه القاعدة، أي إهدار المصلحة العامة الكبرى في سبيل مصلحة خاصة صغرى.

وقد يقال: إن الهدف هو: ضرب الدولة ومحاولة تفتيت بنيتها، وتعطيل تنميتها.

ولكن هذا الهدف هو هدف الأعداء، ومن هنا، فإنه لا ينبغي أن يكون هدفاً لمسلم مصري، لبلده عليه حقوق كثيرة من أهمها: الحفاظ على كيان البلد وحمايته من مخططات الأعداء.

نحن نعلم أن وجود (مصر عاجزة) باستمرار، هدف ثابت من أهداف الصهيونية ـ متلبس بأهداف قوى أخرى ـ ذلك أن وجود مصر عاجزة ضعيفة هو (الضمانة الوحيدة) لمستقبل الدولة الصهيونية.. هكذا يتصورون وهم مقتنعون ـ في العمق ـ بهذا التصور الشرير.



ومصر العاجزة هي مصر المضروب أمنها، والمعطلة تنميتها، والمهتزة وحدتها.

وفي سبيل إنجاز هذا الهدف يستخدم الخصوم كل وسيلة، وكل أسلوب وكل شكل من أشكال الفتنة والصراع.

والسؤال المهم هو: هل يجري العنف وفق تواطؤ معلوم؟ ليس بالضرورة أن يكون هناك تواطؤ مكتوب، ما دام (الفعل) يخدم استراتيجية العدو في الاضطراب والإنهاك والتمزيق.

هل يمكن أن يخدم الإنسان عدوه بحماسة ومثابرة؟.. نعم يمكن أن يفعل ذلك إذا قام بأفعال تخدم العدو خدمة مجانية.. ولذا نتوجه إلى الذين يمارسون العنف بخطاب خلاصته: إنكم تشوهون الإسلام وتخدمون العدو بهذا السلوك، فإذا كنتم من محبي الإسلام[١]، ومن

(١) فرحنا أيما فرحة، بل شعرنا كأننا في يوم عيد بهيج حين أصدرت نخبة ذات وزن وتأثير في (الجماعة الإسلامية) في مصر كتيباً بتاريخ يناير عام ٢٠٠٢م يحمل عنوان (تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء). وقالت فيه ـ بلغة العقل ـ: «وكانت النتيجة أن هذا البعض أهلك نفسه وأضاع قومه، وسفك دماءه، ودماء غيره بغير مبرر أو دونما مصلحة، فلم يحقق هدفاً، ولم يجن ثمرة وأشمت اليهود فيه، وخوف الناس من دعوته، ولم يحقق ما يصبو إليه من رفع الظلم وإنقاص عدد المعتقلين، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.. وقد كانت حجة الشباب المسلم في هذه الأحداث: أنه وقع عليهم ظلم وعسف، ويريدون إخراج المعتقلين، ولكنهم غفلوا عن حقيقة مهمة وهي: أن الظلم والعسف سيزداد وقد حدث، وأن المعتقلين سيزدادون وقد حدث، وأن الأسر ستهدم وقد حدث، وأن المفاسد كلها ستحدث وقد حدث، وأن المصالح لن تأتي وقد حدث، وأن الناس ستنصرف عن الدعوة، وقد حدث، وأن اليهود سينتهزون هذه الفرصة للنيل من الفريقين، وقد حاولوا. وبالجملة فإن أعداء الإسلام والمسلمين هم المستفيدون مما يحدث، أما سمعة المسلمين فقد تدهورت في بلاد الدنيا كلها وبخاصة بعد عمليات السياحة، وتكتل العالم كله في جبهة واحدة لمحاربة الإسلام ذاته».

مبغضي الأعداء حقاً، فكفوا عن أفعالكم هذه. فهذا الكف هو الدليل العملي الصادق على محبتكم للإسلام، وبغضكم للأعداء.

أما الخطاب الآخر فنتوجه به إلى علماء الأمة: وموجز الخطاب: أن يقطعوا برامجهم العادية وأن يجردوا أنفسهم لدفع فتنة العنف عن الأمة بالصدع بالحق في هذه القضية.. فثمة نذر بتوسيع نطاق العنف.. وديونة العنف لا تزال خجولة وجزئية في حين ينبغي أن تكون جريئة وقوية وموصولة وشاملة.. لا جرم أن مسيرة الدعوة تتعثر بسبب هذا التشويه المنكر لصورة الإسلام.

اتفاقية (مكافحة الإرهاب) والفصل بين الإرهاب والإسلام..أيضاً



يبدو (السطح الاجتماعي)، هادئاً نسبياً في الوطن العربي، في هذا الإبّان. لكن هل يشارك (العمقُ) السطحَ في هذا الهدوء؟

من الأخطاء السياسية القاتلة: الاغترار والانخداع بـ (المظهر الخارجي) للسطح الاجتماعي، وكأي من متوهم انخدع بالسكون البادي لـ (القشرة الظاهرة)، فإذا هو أمام مباغتات عاصفة، كانت تمور في العمق، ثم تبدت في هذه الصورة أو تلك.

إن معدل (العمليات الإرهابية) قد انخفض ـ نسبياً ـ في الشهور الأخيرة، بالقياس إلى حقبة الذروة في العمل الإرهابي.. فهل يفهم من ذلك أن ظاهرة الإرهاب دخلت طور التناقص والتآكل، وتهيأت للانقراض والزوال النهائي؟

هذا تعجل في التقويم والاستنتاج والحكم:

١ ـ فالإرهاب (فلسفة) قبل أن يكون سكيناً، أو قنبلة، أو رشاشاً. فكل عمل إرادي، تسبقه فكرة في الذهن، تنضج فتتحول إلى نزوع وجداني، ثم يكون التصميم والعزم والتنفيذ. فالتفجيرات والاغتيالات

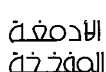
بتاريخ ١٨/٤/١٩٩٨م.

والتخريبات والترويعات إن هي إلا ثمرة لـ (ثقافة العنف).. وحتى اليوم لم تحصل (معالجة جادة) للإرهاب على هذا المستوى: مستوى العمق والجذر والغور، في العقل والروح أو المنطقة المعنوية للإنسان، فلا نعلم أن هناك (استراتيجية علمية فكرية) متكاملة ومتوازنة وصادقة وألمعية، تنسخ أو من مقتضاها العملي أن تنسخ (فلسفة العنف) ـ باسم الدين ـ في العقل والذهن والتفكير.. وما لم يطب الداء أو المعضل في جذره وغوره، فإنه يظل يعتمل في العمق، وإن بدا للناس أن الجسم صحيح، أو أن السطح الاجتماعي معافى وهادئ.

٢ـ الإرهاب ـ في جانب مهم من جوانبه ـ صناعة خارجية ـ صُدِّرت ـ عمداً ـ للوطن العربي وهذا لا يلغي العوامل الذاتية ـ لتحقيق هدفين يؤذيان الأمة ـ أيما إيذاء ـ في حياتها المادية والمعنوية:

أ ـ هدف جعل الإرهاب (عقبة) كبرى في طريق التنمية. فمن آثار الإرهاب المباشرة: ضرب الاستقرار السياسي والاجتماعي، إذ يتعذر أن تتحقق تنمية قوية مورقة مثمرة في غياب الاستقرار السياسي والاجتماعي.

ب ـ هدف (الصد عن سبيل) الإسلام. فالإرهاب ـ باسم الإسلام ـ تشويه لصورة الإسلام السمحة الجميلة الرحيمة الرضية. والصورة الشائهة القبيحة تنفر من الإسلام تنفيراً شديداً، وقد كان الشانئ يعمد ـ ولا يزال يعمد ـ إلى تقبيح صورة



الإسلام بوسائل إعلامه المختلفة: بالسينما والتليفزيون والإذاعة والصحافة، والكتاب، ومن هنا فإنه من البدهي أن يحفز ـ بمختلف وسائل الحفز ـ على تشويه الإسلام. بيد مسلمين، أو أن يستغل هذه الموجة ويوظفها لتحقيق هدفه الثابت في ضرب (المقومات المعنوية) للأمة.

ولما كانت هذه المقاصد قائمة، فإن احتمال استمرار ظاهرة الإرهاب هو احتمال قوي .. وليس من الواقعية الاجتماعية، ولا من الحنكة السياسية: استبعاد هذا الاحتمال بمقتضى الوهم، أو الانخداع بالهدوء النسبي على السطح.. نعم. ثمة لمعة من الأمل تومض أحياناً. ومن ذلك ـ مثلاً ـ ما أعلنته إحدى الهيئات الإسلامية إذ قالت على لسان أمينها العام: «أتممت بحمد الله دراسة شرعية في شأن قضية قتل المدنيين، وهي قضية حساسة بات الأمر فيها في هذه الآونة خاصة مطروحاً بشكل موسع ويحتاج إلى حسم واضح في كثير من قضاياه وأحكامه.. وهذه الدراسة تهدف إلى قطع الطريق على الأعداء والخصوم الذين اتخذوا من قضية قتل المدنيين مادة للمزايدات والتشنجات والتشويهات المتعمدة».

هذه لمعة أمل. لكن اكتنف هذا الأمل المحدود: نقيصتان كادتا تلغيانه: نقيصة الدينونة الخجولة لأعمال العنف والإرهاب التي تحدث باسم الإسلام. فهذه القضية لا يصلح لها الهمس ولا

النجوى الخافتة، بل يصلح لها الجهر والصدع الكامل بمنهج الإسلام الكامل: المنهج الذي يدين العنف كله، ولا يوجد له مسوغاً البتة ولا يلتمس له عذراً قط، إذ العنف والإسلام نقيضان لا يجتمعان، لا في الباعث ولا في الوسيلة، ولا في الهدف.. أما النقيصة الأخرى التي اكتنفت الأمل المحدود فهي: أن المراد بالكف عن قتل المدنيين هو «قطع الطريق على الأعداء الذين يستغلون هذه الأعمال في التشويه المتعمد للإسلام».. أي أن الكف عن الإرهاب (مسألة تكتيكية)، اقتضاها قطع الطريق على الأعداء، في حين أن الامتناع عن العنف والإرهاب يجب أن يكون هو النهج الفكري والعملي الثابت: المنهج المطرد الذي لا استثناء فيه، ولا احتجاز له في أي مرحلة من مراحل الدعوة والعمل والنهوض.

ومن حق القارئ أن يسأل عن مناسبة العودة إلى قضية الإرهاب، ومن مسؤوليتنا أن نجيب فنقول: إن المناسبة الزمنية هي: أن وزراء الداخلية العرب سيجتمعون في القاهرة للمصادقة على (اتفاقية مكافحة الإرهاب) وهي اتفاقية انتظمت ٤٢ مادة، تدندن كلها حول الإرهاب ووسائل مكافحته.

وأول ما يعنينا أو أن مناط أمر هذه الاتفاقية هو (التعريفات)، فالتعريف إنما هو ملخص مركز لـ (المفهوم الرئيس) للاتفاقية.. فكيف عرّفت الاتفاقية الإرهاب؟.. عرفته بأنه هو: «كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أياً كانت بواعثه أو أغراضه، يقع تنفيذاً

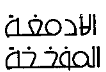
لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بأبنائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة، أو احتلالها أو الاستيلاء عليها، أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر».

ومن التعريفات السديدة للاتفاقية، ذلك الاستثناء الحصيف العادل المسؤول الذي يميز بين الإرهاب والكفاح الوطني المشروع ضد الاحتلال الأجنبي. ونص الاستثناء هو: «لا تعد جريمة: حالات الكفاح بمختلف الوسائل بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان، من أجل التحرر وتقرير المصير، وفقاً لمبادئ القانون الدولي، ولا يعتبر من هذه الحالات: كل عمل يمس بالوحدة الترابية لأي من الدول العربية» والمقصود بالقيد الأخير: تجريد حركات الانفصال عن كل شرعية وطنية ودولية، وهو قيد لابد منه، ولا سيما في ظروف تريد قوى معينة أن تفجر فيها المجتمعات العربية من الداخل.

وبالعودة إلى التعريف الشامل يتبين أنه تعريف سليم، انصب على حالات الإرهاب الحقيقية والتي لا يمكن أن توصف إلا بأنها إرهاب.. وإذا كان هذا التعريف ينتظم كل عمل إرهابي، أياً كانت صبغته وأيدلوجيته، فإنه ينتظم ـ بلا شك ـ الإرهاب باسم الدين. ولا سيما أن تصرفات إرهابية عديدة قد جعلت الإسلام عنواناً لها

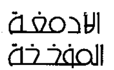
في الفترة الأخيرة. ومن هنا، فإن كل جريمة إرهابية ينطبق عليها ذلك التعريف، يجب أن تعرف - تلقائياً - بأنها لا علاقة لها بالإسلام (ومن الجنون أن يتصور أحد أن هذا التعريف عقبة!! في طريق الجهاد الإسلامي !! فليس بين الجهاد الشرعي وبين نزف العنف والإرهاب أي علاقة).. وفي ضوء ذلك لا يجوز - قط - أن ينْسبَ الإرهاب إلى الإسلام: أولئك الذين يقتلون الناس الآمنين ويروعونهم ظلماً باسمه، ولا يجوز أن ينسب الإرهاب إلى الإسلام: أولئك الضائقون بالإسلام من بني جلدتنا، أولئك الذين يفرحون بالإرهاب من جهة أنهم يفرحون بما يشوه الإسلام..

لقد تم الفصل في الاتفاقية بين الإرهاب وبين الكفاح الوطني المشروع ضد المحتل.. ويجب أن يتم الفصل - كذلك - بين الإرهاب وخدمة الإسلام. يجب أن يخرج العمل للإسلام - بشرط أن يكون علمياً حكيماً ورفيقاً وسلمياً - من دائرة ذلك التعريف. فالإرهاب - باسم الإسلام - لن يجتث بالتنكر للإسلام، أو التحامل عليه، وبتسليط الكارهين له - من الكتاب والمثقفين - على النيل منه - كموازنة مزعومة بين الإرهاب الديني، والشرود الإلحادي - .. وإنما يكافح الإرهاب المتستر بالإسلام - بحقائق الإسلام الناصعة في الرفق والرحمة والمحبة والتسامح والاعتدال وتعظيم حرمة الدم الإنساني، وهي حقائق ينبغي التمكين لها، لا أن تطارد وتنفى..



وتخطئ حكومات ودول إذا ظنت أن التضييق على الإسلام، نهج صحيح في مكافحة الإرهاب الديني، تخطئ لأن هذا النهج غير الذكي وغير السوي ينشئ الإرهاب إنشاء ويسعره تسعيراً، ولو لم يكن موجوداً. فهذا النهج الخاطئ يعطي (الإرهابيين) ـ باسم الدين ـ حجة قوية وهي: أن هذه الدولة أو تلك الحكومة إنما تكافح الإسلام نفسه بدليل أنها قلصت حظوظه في التعليم والثقافة والتشريع.. فحقيقة المعركة ليست بين هذه الجماعة أو تلك وبين حكومة معينة، وإنما حقيقة المعركة هي بين الإسلام وتلك الحكومة ـ هكذا يقول الإرهابيون ـ وسيجدون من يصغي إليهم في حال تلبس حكومة ما بنقيصة الخلط بين الإسلام والإرهاب.

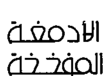
ومهما تكن قوة الاتفاقية ومهما تكن قوة الإجماع عليها، فإنها لا تكفي وحدها في مكافحة الإرهاب.. فهذه الاتفاقية تكافح ـ في الغالب ـ (الصورة المادية) للإرهاب، أي بعد أن يتحول إلى جريمة مادية ملموسة، وقد مضى القول ـ آنفاً ـ : أن هذه الصورة المادية مسبوقة بتفكير إرهابي، وثقافة إرهابية، والاقتناع بهذه الحقيقة يستدعي وجود (استراتيجية ثقافية): مجال عملها هو منطقة العقل والتفكير والتصور. وبهذه الاستراتيجية تعالج الجريمة الإرهابية ـ من ثم ـ في طورها الجنيني الأول: طور الفكرة والتصور.. ومن الصراحة أن نقول: إن الوطن العربي يفتقد هذه الاستراتيجية إذ هو مسرح عريض لخليط ثقافي شديد



الاضطراب. فهناك: الثقافة المهملة للدين.. وهناك الثقافة المعادية للدين.. وهناك الثقافة المنحرفة باسم الدين.. وهناك ثقافة الضياع.. وهناك ثقافة العنف غير الديني أي العنف بإطلاق... إلخ .. والمطلوب هو: ثقافة دينية سوية تغسل العقول من لوثات الإرهاب.. وثقافة علمية تمد حركة التفكير بزاد علمي يعين على استواء التفكير ويجعله (مبدعاً) لا (مبتدعاً) سواء أكان الابتداع في مجال التكفير، أم في مجال العنف والإرهاب.

وهذه مسؤولية العلماء والمثقفين الذين لا يجرؤ عاقل ذو ضمير على القول بأنهم أدوا مسؤوليتهم، ورعوا أمانتهم في هذه القضية حتى الآن.

هوليود:
أضواء (الأوسكار) اللامعة
وظلام الجريمة
في المدرسة!!



اعـتـرت المجـتـمع الأمـريكي هزة قـوية توشـك أن تكون زلزالاً تربوياً واجـتماعـياً.. وربما انصـرف الذهن إلى أن هذه الـهـزة كانت نتيـجة (طرب) مـفرط، بالـحفل الـفني الإعلامي الضـخم الـفخم الذي أقيم في (هوليود) بمناسبة توزيع جوائز (الأوسكار) على عدد من الفنانين. ولقـد كـان الـحـفل (مـبـهـجـاً) بـحـيث يمكن أن يـحـدث هزة ـ ذات نشوة ـ في نفوس مشاهديه ومتابعيه.

بيد أن (الـهـزة) التي نعنيهـا كانت من نوع آخـر. فالـهـزة حصلت حين أقـدم غـلامان أمـريكيـان همـا (ميـتـشل جـونسـون: ١٣ عـامـاً، وأندرو غـولدن: ١١ عـامـاً) على ارتكاب مـذبحـة فـي المدرسـة التي يدرسـان فـيـهـا، إذ أطلقـا النار عـشـوائيـا ـ بعـد تـخطيط دقـيق لجريمتهما ـ على التلاميذ والمدرسات فقتلا أربعة تلاميذ، ومدرسة حاملاً، وجرحا عدداً كبيراً من تلاميذ المدرسة.

هنالك، اجـتـاح المجـتـمع هـزة راعـدة، بل اجـتـاحـه رعب قـاصـف عـاصـف مسـبب ببـشاعـة الـجـريمة وشذوذها، وبخـوف كل أم وأب

بتاريخ ٢٨/٣/١٩٩٨م.

من أن مثل هذه الجريمة قد تقع لأولادهما وبناتهما في أية مدرسة أمريكية، وفي أية لحظة فإذا الطفلة أو الطفل صريع عدوان طفل مثله!!

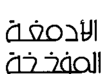
وابتداء المقال بالإشارة إلى حفل هوليود السينمائي الفني، لم يكن مجرد إثارة، فثمة (رباط) قوي بين هذين الحدثين.

فمذبحة الأطفال ـ مقتولين وقتلة ـ وقعت في أثناء الـ ١٢ ساعة التي أقيم فيها حفل هوليود.. وهذا رباط زمني بين (روعة!) أضواء الفن، وبين (رعب) الجريمة.. بين العرس والمأتم.

والرباط الزمني غير إرادي بداهة. فلا يعقل أن يكون هناك مخطط يجمع بين الحفل والجريمة في آن، ولكنه رباط يتيح للذهن فرصة التأمل في المفارقات العجيبة في عالمنا هذا.

أما الرابط الموضوعي المقصود (الذي يربط بين حفل هوليود وبين مذبحة مدرسة الأطفال) فهو أن هناك علاقة قوية ومطردة بين السينما والجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية، فالسينما (تفخخ) عقول الناس ـ ولا سيما الناشئة ـ بمفاهيم العنف.

ولو كان هناك (وعي) إنساني ـ حقيقي وشفاف ـ لتبدل مقياس جائزة (أوسكار)، بمعنى أن يكون المقياس هو (أثر) السينما الجيد الطيب الإيجابي في نفوس الناس وأخلاقهم ومسالكهم، لا أن ينحصر مقياس الجائزة ـ كما هو حاصل الآن ـ في (تكنيك) صناعة السينما، سواء أكان هذا التكنيك: قصة، أم سيناريو، أم



إخراجاً، أم مونتاجاً، أم تصويراً، أم مؤثرات، أم تمثيلاً.

ولكن حين اختل مقياس الجودة والأثر في صناعة السينما الأمريكية، غدت هذه السينما (مركز تدريب) مستمر على فنون الجريمة والإجرام.

وقد لا يكون هذا الرباط ـ بين السينما وبين التحريض على الجريمة ـ واضحاً في تصور القاضي الذي سيحاكم الغلامين الأمريكيين القاتلين الضحيتين«!!»، ولا في تصور المحامين الذين يدافعون عن حقوق الأسر المنكوبة بالقتل أو الجرح في تلك المذبحة الرهيبة، وقد يكون سبب غياب وضوح هذا العامل هو: العجز عن رد المشكلات إلى أسبابها الموضوعية، وعللها الحقيقية.. ومهما يكن من أمر فإن الوقائع تؤكد الرباط بين السينما والجريمة، ولا سيما إذا كانت هذه الجريمة صادرة عن (مراهقين). إذ إنه في سن المراهقة يختلط الواقع بالخيال، وتزول الفروق ـ من ثم ـ بين البطولة السينمائية، والبطولة على أرض الواقع التي يطمح المراهق إلى تمثلها ومباشرتها.

ولا نستشهد ـ ونحن نسوق الوقائع والمثلات ـ بكلام (متطرفين) يعيّرون المجتمع الأمريكي بكل هفوة، ويركزون ذاكرتهم على البقع المظلمة فحسب.. ولا بكلام شيوعيين ـ غابرين أو حاضرين ـ يبشرون بزوال أمريكا من جهة أنها أكبر عقبة في طريق الحتمية الماركسية!! ويتخذون من الأخطاء والخطايا مداخل

لهذه البشرى.

وإنما نستشهد بكلام أناس أمريكيين من صميم المجتمع الأمريكي، عرفوا حقيقة العلاقة بين الجريمة وأفلام العنف ـ التي تنتجها هوليود ـ فرفعوا أصواتهم بصراحة ووضوح، معبرين عن هذه الحقيقة، ومطالبين بعمل أي شيء لإيقاف موجة أفلام العنف التي تطوي الأجيال الناشئة طياً قاسياً في دوامتها واندفاعها وتصاعدها.. ومن هؤلاء الأمريكيين العليمين الذين نستشهد بأقوالهم:

١ـ الرئيس الأمريكي الأسبق (ريتشارد نكسون). فمن كلماته الأخيرة قبل موته: «إن هوليود مريضة، وتتاجر بالجريمة والجنس من أجل المال، متخلية بذلك عن مسؤولياتها في مراعاة القيم الأساسية للأخلاق. ولقد عجلت هوليود بتدهور هذه القيم في المجتمع بشكل عام».. واقترح نكسون ـ أو توقع ـ أنه ما لم تنظف مدينة السينما أعمالها من الجريمة والفساد، فإن الحكومة ستضطر إلى مصادرتها، حفاظاً على ما هو أهم وأعظم وهو: المجتمع الأمريكي وقيمه وأخلاقه.

٢ـ (بوب دول) السناتور الشهير ومرشح الحزب الجمهوري أمام كلينتون، فقد اتهم هوليود بأنها وراء الجرائم التي تجتاح المجتمع الأمريكي، وقال: «إن العاملين في هوليود يجب أن يتحملوا قسطاً كبيراً من المسؤولية عن العنف الذي يكتسح بلادنا، أليس

هناك طريقة أخرى تكتسب بها هوليود العيش والمال؟.. وهل توسيع نطاق الجريمة هو الطريقة المثلى التي تسهم بها هوليود في بناء المجتمع الأمريكي»؟

وقد يقال: إن نكسون ودول رجلان محافظان: هذه طريقة تفكيرهما في الأمور، أي أنهما يبالغان في الربط بين هوليود والجريمة، وهذه تهمة واهية مردودة بموقف زعيم أمريكي آخر، لا يتهم بالمحافظة، بل يتهم بالإفراط في (التحرر) وهو الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون). فهو ـ من موقع مسؤوليته الرئاسية ـ فتح أعين الأمريكيين على (مخاطر) الجريمة والعنف التي تتسبب هوليود في إيجادها وتصعيدها.. ومما قاله في هذه القضية: «إن سرطان الجريمة والعنف يمثل مشكلة عاتية وخطرة لأمريكا، وليس هناك قضية تتطلب التعاون بشكل أوثق لمواجهتها، أكثر من سرطان الجريمة والعنف الذي يلتهم الروابط التي توحدنا كشعب».. وفي اجتماع ضم ٤٠٠ سينمائي في هوليود ـ وحضره كلينتون ـ قال الرئيس الأمريكي: «إن أفلام الجنس والعنف التي تقدمها هوليود للمجتمع الأمريكي تمثل خطورة بالغة على البناء الاجتماعي لأمريكا، وعلى الناشئة الأمريكية بوجه خاص. إن هوليود بجميع ما تنتجه مطالبة بإعادة النظر فيما ينبغي أن يقدم. فساعدونا على وصل الوشائج المقطوعة لهذه الأمة».

هذه كلها شهادات أمريكية، تثبت العلاقة بين الجريمة وصناعة

السينما في هوليود.. وفي ضوء هذا الواقع الحزين الموثق، يتبدى سؤال موضوعي وهو: بأي شيء تحتفل هوليود؟ أتحتفل بإسهامها في نشر الجريمة، والتدريب المستمر عليها؟.. ولمن تعطي جوائز الـ«أوسكار»؟.. أتعطيها لأولئك الذين تولوا مهمة التمرين على الإجرام؟

وفي ضوء ذلك أيضاً، يفد سؤال مشروع ونابه ولماح وهو: ما شأننا نحن ـ في العالم العربي الإسلامي ـ بما تصنعه هوليود وما يجري في أمريكا؟

ألا إن لنا لشأناً، أي شأن، بل إن هذا الشأن هو الباعث على المقال، وهو ـ في الوقت نفسه ـ هدف المقال:

أولاً: إن في جريمة مدرسة (جونسبورو) جانباً إنسانياً ينبغي التعاطف معه. فبليد الحس هو الذي لا يكترث بأمر تلاميذ قتلهم زملاء لهم شر قتلة. والبعد الجغرافي لا يجوز أن يكون (جداراً) عازلاً يعزل المشاعر الإنسانية، بعضها عن بعض، وإلا فما معنى (وحدة النوع الإنساني)؟

ثانياً: أن السينما الأمريكية ذات تأثير عميق جداً في العالم ـ ومنه العالم العربي الإسلامي ـ فالأحداث وأسبابها هناك تدخل في صميم واقعنا هنا. ولا سيما أن التصور الصحيح لعالمنا هو: أننا بمثابة جموع من كل جنس ودين، تبحر في سفينة واحدة إلى مستقبلها، وأن أي خرق في السفينة ـ ولو بيد أمة واحدة ـ

سيؤدي إلى غرق الجميع، يضاف إلى ذلك أن في الوطن العربي - مثلاً - أناساً لا يحسنون إلا تقليد أمريكا في أسوأ حالاتها.. ومما لا شك فيه أن نقد التجربة الاجتماعية الأمريكية - في سوئها - قد يقلل من اندفاع هؤلاء في التقليد.

ثالثاً: أن إثبات العلاقة بين السينما الأمريكية، وبين الجريمة، قاعدة علمية لإثبات العلاقة بين الجريمة وبين الإعلام السيئ - ككل - ولما كان العالم العربي الإسلامي يتجه نحو عصر إعلامي - بالاضطرار أو الاختيار - فإن معرفة هذه العلاقة ضرورة - لابد منها - في التخطيط لاستراتيجيات إعلامية، لا تعلل نشر الجريمة بمقولة (الحرية الإعلامية).

رابعاً: بعد أن وقعت الجريمة إياها في أمريكا، حدثت مناقشات موسعة في الموضوع - كما هي الحال عقب كل واقعة مماثلة - وعلى الرغم من الولع بالمناقشات في هذه القضايا . فإنها لا تزال قائمة. بل تزداد فشواً وتعقيداً، وسبب ذلك هو أن المناقشات مجرد طرق أفقي للمشكلات، أي لا تغوص وراء الأسباب العميقة مثل الخطأ الفادح في مفهوم (الحرية الإعلامية مثلاً)، ثم إن المناقشات لا تنتهي إلى نتائج حاسمة تبدل الحال غير الحال.. وفي إطار المحاكاة، طفقت فضائيات عربية تنهج النهج نفسه في الطرق السطحي للمشكلات. ولذا حصل التنبيه بأن هذه الطريقة التي لم تنفع الأمريكيين، لن تنفع العرب أيضاً، فالمناقشة الصحيحة

تتضمن النقد.. والنقد الموضوعي لا يكون إلا من خلال تصور سليم للبدائل، بمعنى أن وضوح البديل هو ذاته المقياس الذي يعتمد عليه الناقد. وبغير ذلك لا تكون هناك ثمرات للمناقشة.

خامساً: أن الترابط بين الجريمة والإعلام: أزمة إنسانية كبرى تتعلق بحقوق الإنسان ـ التي يزعم أقوام أنهم هم وحدهم حماتها ـ ولذا نقترح أن يضاف إلى ميثاق الأمم المتحدة أو إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هذا النص أو هذه المادة الرئيسة وهي: «من حق كل إنسان أن يعيش في بيئة خالية من العنف والجريمة، ومن الخوف منهما، وعلى كل حكومة أن توفر لمواطنيها وقاطنيها وقاصديها هذا الحق الذي يعد المعيار الأساس لاحترامها لحقوق الإنسان والمعيار الأساس لصلاحها وبقائها».

الفصل الثالث

في وجه القارعة
ومجابهة مسببيها ومستغليها

معاً.. ضد الإرهاب..
ولكن بأي عقلية؟

استـهولت البـشرية ـ أسـودها وأبيـضـها وأحـمرها وأصـفرها، مـؤمنها وكـافـرها، جاهلـها ومـتعلمـهـا ـ استـهـولت القارعـة التي ضـربت مراكـز حيـوية في الجـهـاز العـصبي في كل من نيـويورك وواشنطن من الجـمـهـورية الأمـريكيـة، على يـد الإرهـاب الفـاجـر المجنـون. ومن حق سكـان الكوكـب أن يتــزلزلوا، وأن يـرتـاعــوا. فـأمـريكـا دولة قـوية مـحـصـنة ـ هـكذا كـانت المسلّمـة الـسـابقـة ـ والاختـراق صـاعق، والمباغتة قاصمة، والصدمة مذهلة، والخسائر مفجـعة. ولسنا نريد أن يزداد الناس رعباً حين نقـول: إن ما حدث ـ على الرغـم من أهواله ـ قـد يكون صــغـيــراً جـداً بالمقــارنة بما سيـقع. فـمن المتـوقع: أن يشــهـد العـالم مـا هو أشـد هولاً، وأكـثـر صعـقاً. وهذا الـتوقع ليس مـبنياً على زلزال نيـويورك وواشنطن، بل مبـني على ما يثـوي في حالة الفـوضى والاضطراب والتيـهان والعمى الاستراتيـجي والتحجر الفكري والسياسـي التي يعـيشـها العـالم اليوم. فـمن مـثل هذه الحـالة نشـأت الشـيـوعيـة والفـاشيـة

بتاريخ ١٥/٩/٢٠٠١م.

والنازية. ولذلك كتبنا نقول منذ تسع سنوات، في هذا المكان [١]... ولكن الأصمّ ينادى من مكان بعيد!!

إن الإرهاب واقع ملموس، لا مسوغ ـ قط ـ لغض البصر عنه، ولا للتلطيف من غلظته. واقع ملموس يرجم الناس ـ هنا أو هناك أو هنالك ـ برجومه وشواظه. ومن هنا، فإن الإرهاب الراهن والمتوقع شر كله، خراب كله، فساد في الأرض كله، أحزان كله. وإنه لمنحرف التفكير، مريض النفس، عديم الإنسانية. من لا يدين الإرهاب، أو يتردد في تأثيمه وتجريمه؟! إذ ليس للإرهاب معاذير، ولو ألقى معاذيره. فليس هناك ما يسوغ الإرهاب حتى لو وقع ظلم على هذا الانسان أو ذاك، على هذه الأمة أو تلك. فالظلم لا يُزال بظلم أفدح منه يروع الآمنين المسالمين ويقتلهم. ولو اعتمد هذا الأسلوب لما استطاع الناس العيش على هذه الأرض. ثم إن الإرهاب فجور مطلق لا يتقيد بقوانين الحرب، ولا بأخلاقها.

ونحن إذ ندين الإرهاب ـ أيا كان مصدره، وكانت معاذيره ـ فإن موقفنا منه لا يُستمد من أدبيات الـ (CIA) ولا من إعلام الإثارة والتهويل، ولا من الفلسفات الاعتذارية التي طغت على تفكير الكثيرين من المهتمين بالشأن العام في الوطن العربي والعالم الإسلامي. وإنما نصدر في موقفنا من الإرهاب عن (مرجعيتنا) الخاصة، وهي منهج الإسلام.

---

(١) انظر ص ٨٨.

وهذا المقال لا يتسع إلا لدليل واحد من أدلة التجريم القاطع للإرهاب في المرجعية الإسلامية... إن بين حياة الأسرة البشرية الأولى، وبين يوم الحساب في الدار الآخرة، أزمنة متطاولة جداً، استغرق امتدادها مئات الأجيال المتعاقبة. وخلال هذه الآماد الزمنية المتناهية في الطول، قتل ـ ظلما وبغير حق ـ عشرات الملايين من البشر.. ويتحمل قابيل ـ أحد أبناء آدم المباشرين ـ كفلاً من كل دم إنساني يسفح عدواناً على هذه الأرض، أي يتحمل نصيباً من كل جريمة سفك دم إنساني، سواء سفك هذا الدم في الماضي، أم يسفك الآن، أم سيسفك في المستقبل. لماذا يبوء قابيل بهذه الأكوام الضخمة من الآثام: المتراكمة والمتصاعدة يوماً بعد يوم؟.. السبب هو: أن الإرهابي قابيل أول من بدأ (العنف) والإرهاب، وأول من استباح دم الإنسان، وأول من بسط يده بالقتل، أو أول من سن القتل. وهذا الخبر الصادق الذي نقله إلينا الكتاب والسنة[١]، في سياق التجريم والتحذير، دليل حاسم على أن الإسلام دين يعظم حرمة الدم الإنساني تعظيماً، ويؤصل أمن الإنسان تأصيلاً، ويدمدم على العنف والإرهاب دمدمة موصولة منذ البدء إلى المنتهى، وما بين البدء والمنتهى.. وإذا

---

(١) آية: «أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً».. وحديث: «لاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل».

كان هذا هو مصير قابيل، وهذه سمعته لأنه أرهب إنسانا فرداً وقتله، فكيف هو مصير من روّع الألوف من الأبرياء وقتلهم في نيويورك وواشنطن؟.. وفي ضوء هذه المرجعية الناقضة للإرهاب، نمتلئ غبطة حين نرى الأطفال والنساء والناس أجمعين يسعون ويعيشون في الشوارع والأسواق والمدارس والحدائق والملاعب وأماكن العمل والبيوت، نمتلئ غبطة حين نراهم آمنين مطمئنين يخرجون سالمين، ويعودون سالمين، ونردد مع نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك»**.. والعكس صحيح، بمعنى أن الإنسان السوي يمتلئ حزنا حين يروع الإرهاب الناس وينكّد حياتهم، ويجعلهم يكثرون التلفت ـ في فزع ـ إلى أيمانهم وشمائلهم وخلفهم وقدامهم وفوقهم وتحتهم! الإرهاب ـ من ثم ـ مرفوض منقوض. ليس في ذلك شك. ولذا فإن مكافحته واجب لا يقبل التأجيل ولا التردد ولا المساومة. هذه هي القضية الأولى في المقال. أما القضية الثانية العدل، فهي: كيف يواجه الإرهاب؟ وبأي عقلية يكافح؟

لقد وصم الإرهاب بمقابح الهوس والهمجية والوحشية. وهذا صحيح. والاقتناع بصحة ذلك يستوجب التميز عن التفكير الإرهابي، والمغايرة لسلوكه. أي يستوجب التحرر من



مقابح الهوس والتوحش والهمجية.. ولسنا وحدنا في هذا المطلب أو التوجه. ففرنسا وبلجيكا والدنمارك وبريطانيا والصين مثلنا يريدون مكافحة الإرهاب من حيث المبدأ، ولكنهم يريدون ـ في الوقت نفسه ـ الاستيثاق من سلامة المنهج ورشد الوسيلة. وقد جهروا بذلك ـ في ذروة الأزمة ـ ففرنسا تطالب بالعقلانية والتفاهم الدولي الدقيق والمتزن والحازم لمكافحة الإرهاب.. وبلجيكا تربط بين مكافحة الإرهاب وبين ضرورة إيجاد سلوك دولي جديد ومسؤول تجاه شؤون العالم.. والدنمارك تقترح خطاً دولياً موازياً لمكافحة الإرهاب وهو: خط الجد في التقليل من ظواهر البؤس والإحباط في العالم.. والصين تدعو إلى إشراف دولي صارم ـ من خلال مجلس الأمن ـ على خطط محاربة الإرهاب.. ومجلس الوزراء البريطاني يعلن أنه يدعم أمريكا، ولكن ليس بشكل مطلق!!.. لماذا هذا الإحساس المرهف تجاه هذه القضية؟ لأن هؤلاء يعلمون ـ مثلا ـ أن المكافحة الطائشة للإرهاب تجعل بلدانهم تتلظى بنيرانه. وبدهي أن هذا السلوك ليس خوفاً من الإرهاب ولا مداهنة له. فالخوف والمداهنة يغريان الإرهاب بمزيد من اللؤم والفجور والدموية. وإنما مبعث هذا الموقف هو: ألا يستخدم من يقاوم الإرهاب، منطق الإرهاب نفسه، ويتمثل سلوكه نفسه.

ونود ـ ها هنا ـ أن نسجل نقطتين نحسبهما مهمتين:

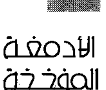
١ـ **النقطة الأولى هي**: أننا نختلف مع الذين يقولون: إن الوقت غير مناسب لطرح الآراء، وممارسة النقد. وحجة الاختلاف هي:

أ ـ أن الحاجة تشتد وتتضاعف إلى (التفكير السليم) في أوقات الأزمات. لأن من طبيعة الأزمات (ولا سيما الأزمات التي تعلو فيها مشاعر الحزن والارتياع والالتياع وتتزايد فيها نسبة الخوف والغضب).. من تداعيات مثل هذه الأزمات: أن تفقد النفس صفاءها، وحين تفقد النفس صفاءها، يفقد الذكاء عمقه، ويفقد التفكير رشده وحكمته، فتكون فتنة.

ب ـ أن المتاجرين بدماء البشرية، وبمآسي الإنسان، لا يتورعون عن استغلال مثل هذه الأزمات استغلالاً خبيثاً يتمثل في تقديم الرأي المضلل إلى الولايات المتحدة، فتكون فتنة.

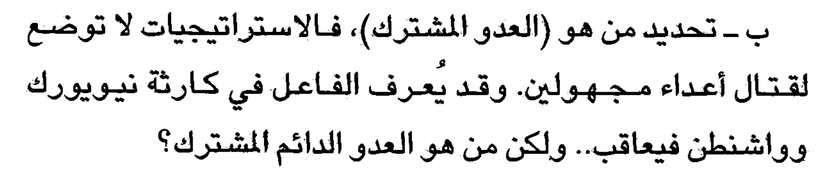
ج ـ أن أمريكا اليوم، في أزمتها الكبرى هذه ليست في حاجة إلى المعلومات الاستخباراتية فحسب، بل هي محتاجة إلى (الرأي) والمشورة. فبالرأي تحيا الأمم أو تهلك.. ولقد حمل التاريخ البشري، والواقع الإنساني من النماذج الدالة على ذلك، ما لا يستوعبه كتاب ضخم.

٢ ـ **النقطة الثانية**: مناقشة لمقولة ترددت كثيراً في زحمة الأزمة، ولا تزال تتردد وهي مقولة: إن الولايات المتحدة ـ والعالم بالتالي ـ ستتغير بعد هذه الأزمة.. فهل هذا صحيح؟ نرجو ذلك.



فلو أن البشرية اعتبرت بالقدر الكافي، بما وقع لها من مصائب لكان سلوكها اليوم أصح وأقوم. أو أقل تكراراً لكوارث وقعت من قبل.. ولنضرب مثلين على عدم الاستفادة مما حدث: **المثل الأول هو**: أن الصهيونية استغلت الحدث الأمريكي في الانتقال خطوات واسعة لتطبيق استراتيجيتها الثابتة وهي: تكوين جبهة عالمية معادية للإسلام والمسلمين.. **والمثل الثاني هو**: أن المسؤولين الأمريكيين تأخروا جداً في توجيه وسائل الإعلام الأمريكية والرأي العام الأمريكي إلى الكف عن التسرع في توزيع الاتهامات، وهو تأخر ترتب عليه ضرر جسيم أصاب العرب والمسلمين في الولايات المتحدة، وهو ضرر تفوح فيه رائحة العنصرية، كما يتبدى فيه منطق الإرهاب الذي يطلق الأحكام إطلاقاً ثم يبطش بالجميع.. وليس من التغيير المطلوب، ولا من مكافحة الإرهاب: النزوع إلى العنصرية واستعارة منطق الإرهاب في التعميم والإيذاء. نعم، نرجو أن يحصل تغيير، وأن يكون إلى الأفضل. فإذا حصل هذا، سهلت مكافحة الإرهاب بنجاعة، أي بعقلية جديدة راشدة. وفي ضوء هذا الرشد، يمكن التعرف على الخطوط العامة لاستراتيجية عالمية لمكافحة الإرهاب.. ومن هذه الخطوط:

أ ـ إيجاد مفهوم مشترك للإرهاب غير مضطرب، وغير عنصري وغير مغرض، وغير مختلط بحق الشعوب في مقاومة الاحتلال والتطلع إلى الحرية والاستقلال، كما هي الحال الآن.


ب ـ تحديد من هو (العدو المشترك)، فالاستراتيجيات لا توضع لقتال أعداء مجهولين. وقد يُعرف الفاعل في كارثة نيويورك وواشنطن فيعاقب.. ولكن من هو العدو الدائم المشترك؟

ج ـ البحث الموضوعي عن أسباب الإرهاب. فليس من علاج جدي إلا بمعرفة الأسباب. ولا عبرة بقول من يقول: إن البحث عن الأسباب يتضمن إيجاد معاذير لهذا الوباء. فالبحث عن أسباب المرض والجريمة لا يتضمن ـ قط ـ تسويغاً لوجودهما، ولا تشجيعاً لانتشارهما، ولا فتوراً في مكافحتهما.

د ـ تأليف إرادة جماعية حقيقية ـ لا صورية ـ في هذا المجال، إرادة جماعية دولية، قوامها: التواضع لا الاستعلاء.. والتشاور لا التفرد.. والمساواة لا العنصرية.. والإحساس بالمسؤولية الجادة تجاه العالم، لا الاستهتار به.

هـ ـ صياغة نظام عالمي جديد يقوم على العدل.. الحقيقي.

أما إذا قام تضامن ـ ضد الإرهاب ـ على الغلط والعمى والهوس والجور، فإن رد الفعل اليقيني، الموازي في القدر، المضاد في الاتجاه، هو: قيام تحالف إرهابي عالمي أشد توحشاً وهمجية ودموية. وعندئذ تصبح الكرة الأرضية ساحة واسعة لتصارع الثيران البشرية، وبقرون أسلحة الدمار الشامل هذه المرة.

(المعاهدة الدولية) لمكافحة الإرهاب: المفهوم..وما ينبني عليه من مواد

عبر السنوات العشر الماضية، طالبنا ١٧ مرة ـ في أزمنة متعاقبة ـ بتحديد واضح ومقنن ومشترك لـ(مفهوم الإرهاب).. وتجددت هذه المطالبة، في المقال الذي نشر بعد الجريمة الإرهابية في أمريكا بأربعة أيام، أي في الخامس عشر من سبتمبر المنصرف. كما تجددت المطالبة في مقال الأسبوع الماضي.

ولقد تكاثرت الدواعي، وتضاعفت الحاجة إلى عمل فكري سياسي قانوني خاص ومفرد، ينصب على (مفهوم) الإرهاب، وما ينبثق منه من لوازم وبنود تؤلف ـ في مجملها ـ (معاهدة دولية)، يتعاهد عليها البشر أجمعون ـ ممثلين في حكوماتهم ـ ويتواصون بإنفاذها: فرادى ومجتمعين.

فسواء انتهت تداعيات القارعة الأمريكية إلى هذه النتيجة أو تلك، فالمقدر ـ عقلاً ومصلحة ـ أن تستمر مكافحة الإرهاب آماداً طويلة: ما بقي على كوكبنا إرهاب، يقتل إنسانه، ويتلف عمرانه.. والترتيب المنهجي لهذه القضية العالمية المركزية هو:

بتاريخ ٦/١٠/٢٠٠١م.

(أ) أن الإرهاب أزمة بشرية كبرى، ينشأ عنها أزمة مماثلة لها أو أشد منها إذا عولج بمفاهيم وسياسات وتدابير خاطئة متخبطة.

(ب) أن الإرهاب بوصفه وباء عالمياً - يمكن أن تصاب به مجموعات تنتسب إلى الأديان والأعراق كافة - لا بد أن يكون له (مفهوم دولي) أو عالمي مشترك، تبنى استراتيجيات وبرامج مكافحة الإرهاب على أساسه، إذ لا يصلح قط - قانونياً وعملياً - أن يتفرد بوضع هذا المفهوم أحد من دون الناس. فهذا التفرد خاطئ - بلا ريب - من حيث إنه قفل لباب الاجتهاد في أمر لا يتحقق إلا بالاجتهاد الجماعي.

(ج) أنه لن يستقيم السلوك البشري: السياسي والأمني - وكل سلوك آخر - حتى يستقيم المفهوم قبلاً. فالمفهوم - المستقيم أو المنحرف - هو: قاعدة السلوك ودليله (مثال على ذلك: أن المفهوم المنحرف انبنى عليه سلوك منحرف وهو الإرهاب).. فالسلوك البشري مسبوق - بالضرورة - بمفهوم ما، لا يستثنى من ذلك إلا المجانين، فهم - وحدهم - (يفعلون) دون أن يكون وراء فعلهم مفهوم ما، لأن المفهوم محله العقل، وهم - بالبداهة - لا عقول لهم.. ينبني على ذلك - بالضرورة أيضا - أنه إذا صح المفهوم صح السلوك والتصرف والإجراء. والعكس صحيح.. ومن المفاهيم التي اضطرب فيها الناس

اضطراباً شديداً: مفهوم الإرهاب (نؤثر أن يكون مصطلح الإفساد في الأرض بديلاً لمصطلح الإرهاب. فالمصطلح البديل أوضح، وأوفى بالحاجة في تقبيح الفعل المقصود. نؤثر الاتفاق على ذلك، وإلا فلا داعي لكثرة الجدل حول الألفاظ، لان المضامين هي الأهم، ولا مشاحة في الاصطلاح في أمر عالمي كهذا)... ومن دلائل الحيرة في تعريف الإرهاب مثلا: ما أعلنه الأمين العام للأمم المتحدة، إذ قال: «إن الخلاف شديد جداً حول مفهوم الإرهاب. فتعريف الإرهاب من التحديات الحقيقية أمام الأمم المتحدة».. وثمة خلاف بين (المشرعين) الأمريكيين، فوزارة العدل تفضل تعريفاً فضفاضاً. لكن من المشرعين من يتحفظ على التعريف المطاط، ويخشون أن يشمل ـ على سبيل المثال ـ قراصنة الكمبيوتر من المراهقين.. وهناك من يرى حصر الإرهاب في الجرائم التي تؤدي إلى قتل أو إصابات جسدية بالغة (ونعترض على هذا التعريف بحجة أنه لا يشمل الترويع ولا تدمير العمران والمؤسسات الحضارية). واعترف (بورتر غوس) رئيس اللجنة الدائمة لشؤون الاستخبارات في مجلس النواب الأمريكي بصعوبة تعريف الإرهاب فقال: «إن تعريف الإرهاب هو أصعب سؤال يواجهه المشرعون الأمريكيون».

ومن هنا، رأينا أن نشارك في الاجتهاد في هذا الموضوع بتقديم

اقتراح بمشروع (معاهدة دولية) لمكافحة الإرهاب ينتظم: الديباجة.. والمفهوم.. ومواد مفصلة.

الديباجة

نحن البشر: شعوباً ودولاً وحكومات ـ وقد رُوعنا جميعاً بالجرائم الإرهابية المتعددة المتكررة، في أكثر من مكان، وبتصاعد العنف الإرهابي، وتطور وسائله وأساليبه ـ نؤمن بأن الحياة الإنسانية: أول وأجل نعمة وهبنا إياها خالقنا العظيم، وقدسها في كتبه، وعلى ألسنة أنبيائه ورسله، ودعانا إلى حمايتها من كل انتهاك، وحرم بإطلاق الاعتداء على هذه الحياة المقدسة.. ونؤمن بأن العمران البشري ـ وهو أحد مقاصد ربنا من خلق الإنسان ـ ينبغي أن يصان من الإتلاف والتدمير.. ونؤمن بأن (أمن) الإنسان والعمران أولوية مبدئية وتطبيقية لا تستقر الحياة الإنسانية ولا تهنأ إلا في ظلها.. ونؤمن بأن كوكبنا المعمور هذا ـ فضاءه وبره وبحره ـ يجب أن يظل آمناً غير مرتاع ولا خائف.. ونؤمن بأن الإرهاب ـ بمختلف بواعثه ومقاصده وصوره وأنماطه ووسائله ومصادره ـ فعل إجرامي يقوض أمننا المشترك، ولا يجوز تسويغه بأي هدف من الأهداف. وإذ نأبى أن يعلل الإرهاب جرائمه بأهداف سياسية أو اجتماعية أو فكرية، نأبى ـ للسبب نفسه ـ أن تكون مكافحة الإرهاب ستراً لأهداف سياسية أو

استراتيجية أو فكرية ليس لها علاقة موضوعية بالإرهاب.. وإذ نعقد عزمنا الجماعي على تطهير الأرض من رجس الإرهاب وشره، نتواصى بالابتعاد المنهجي الدائم عن التظالم، وعن لغة الاستفزاز والتوتر، وعن فلسفة سيادة القوة، متفقين على أن هذه الفلسفة في السياسة الدولية تنشئ مناخاً مواتياً يولد اقتناعاً بأن الحق لا قيمة له، ويغري الميالين إلى العنف بالإعجاب بالقوة، وبأن العنف ضرورة لا بد منها.

من أجل ذلك كله:

واستناداً إلى المادتين ١ ـ ٢ من ميثاق الأمم المتحدة، وتفسير مؤتمر سان فرانسيسكو للمادة الثانية من الميثاق.. والمادتين ٤٨ ـ ٤٩ من اتفاقية جنيف للمعاهدات.. والمواد ١ ـ ٣٦ ـ ٣٨ من نظام محكمة العدل الدولية، وحكمها الصادر عام ١٩٤٩. والمادتين ٣ ـ ١١ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.. واتفاقية منع إبادة الجنس البشري.. والاتفاقيات والقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة ذات الصلة بمناهضة الإرهاب: نعاهد ربنا ونشهده. ونتعاهد فيما بيننا على الالتزام والوفاء بالمعاهدة الآتية:

أولاً: مفهوم الإرهاب

وهو: «كل فعل من أفعال العنف، أو التهديد به، أيا كانت بواعثه أو أغراضه: يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم في

أبنائهم أو تعريض حياتهم وحريتهم وأمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الطبيعية للخطر. ولا تعد جريمة: حالات الكفاح بمختلف الوسائل بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان من أجل تقرير المصير، وفقا لمبادئ القانون الدولي».. «هذا التعريف هو ما اعتمدته الدول العربية في وثيقة عرفت بالاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب».. ويمكن أن يضاف إليه: «ويعتبر الفعل المشار إليه: مروقاً من الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية، والأعراف الدولية، والأخلاق الإنسانية، والنظام البشري العام، وهو فعل لا يصح أن ينسب إلى دين أو قومية أو عرق، إذ يمكن أن يصدر عن جانحين من كل جنس ودين. ويُعد إرهاباً أدبياً، قد يترتب عليه أذى مادي: كل تعميم يُعدّي التهمة الثابتة على الفاعل الحقيقي، إلى أمته وعرقه ودينه».

ثانيا: المواد المفصلة:

١ ـ سن قوانين وطنية ودولية لمكافحة الإرهاب. وأخرى تجمع بين حرية الإنسان وأمنه دون افتعال تعارض بين هذه الحاجات الأساسية.

٢ ـ حصر مسؤولية الفعل الإجرامي فيمن يباشره



ويشارك فيه. ويعد إرهاباً: قذف أمة ما، أو دين ما بتهمة الإرهاب.

٣ ـ تقاسم المسؤولية المشتركة التي تمكن المجتمع الدولي من الردع الحازم للإرهاب، ومحاصرة نشاطه، واجتثاث جذوره، والتصميم الجماعي على تنقية المناخات الوطنية والعالمية من عوامل وجوده وانتشاره كالظلم، والبؤس، وثقافة العنف، وإهمال الشباب. وذلك في ظل القانون والعدالة.

٤ ـ اعتماد شفافية المعلومات، بعد التثبت، لئلا يكون الغموض ذريعة للافتراء والانتقام، وتجاوز القانون.

٥ ـ تعزيز التدابير المالية التي تقطع المدد المالي عن الإرهاب، بشرط: انضباط هذه التدابير بحق الإنسان في وضع ماله وتحريكه كيفما شاء. ويحظر جعل هذه التدابير ذريعة للمصادرة العشوائية، أو التجميد بدون بينة.

٦ ـ القضاء الوطني والدولي هو الفيصل في قضايا الإرهاب.

٧ ـ تطبيقاً لحق الإنسان في الحرية وتقرير المصير، يحظر الخلط بين الإرهاب المحرم، وبين الكفاح المشروع من أجل الحرية والاستقلال.

٨ ـ الكف المتبادل عن سب الآلهة والأديان والشعوب: تفادياً للتوترات الدينية والعرقية ـ التي يتخذها الإرهاب وقوداً لعنفه، ومطية لأغراضه ـ واتقاءً لحرب باردة جديدة.

٩ ـ حماية الأديان من القذف بتهمة الإرهاب، ومن استغلال اسمها في تسويغ هذا العمل الشرير.. مع التواصي باحترام الانبياء جميعاً.

١٠ ـ ترسيخ وتفعيل مبدأ التعارف بين الشعوب، والتفاهم بين الحضارات، وغرس هذه المفاهيم في مناهج التعليم الوطنية.

١١ ـ (أنسنة) الخطاب السياسي والإعلامي والثقافي، والتسامي بمضامينه وأساليبه حتى يكون أداة تفاهم بين الأمم، واجتناب استعمال الشعارات الموحية بالصراع والصدام.

جناية التسبب
في إيذاء الإسلام
والمسلمين

«واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين

ظلموا منكم خاصة»



التبصر مطلوب في كل وقت.

بيد أنه في ظلمة الفتنة المطبقة أولى وأوجب. وفي فتنة التفجيرات في نيويورك وواشنطن، غشي الناس غواش: استسهال إصدار الأحكام، وكثرة الكلام غير المحسوب، والغلو هنا، وهناك، وإعجاب كل ذي هوى برأيه وهواه.

وهذه أزمة ترفد أزمة التفجير بالمزيد من الظلمات ولا ضياء في هذه الظلمة، ولا عاصم من هذه الفتنة إلا باستحضار (المعايير الصحيحة)، وإلا الاعتصام بالهدى المبين.

ومفتح ذلك وعماده هذا السؤال الفيصل:

ما مقياس النهضة السليمة الواجبة؟

ما معيار العمل الصالح الناجح؟

مهما تعددت المقاييس الحقة، وتنوعت المعايير المعتبرة، فإن أعظمها، وأوفاها معنى، وأولاها بالتقديم: مقياسان رئيسان،

بتاريخ ١٣/١٠/٢٠٠١م.

ينتفى المراء حولهما عند أولي العلم والنهى، وهما:

١ ـ المقياس الأول لكل عمل صالح ناجح هو: تعزيز مكانة الإسلام، والحرص على بقاء صورته حسنة نيرة، إذ هو حُسْن كله، نور كله.

أولا: الدليل على الصورة الحسنة للإسلام:

أ ـ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

ب ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

ج ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

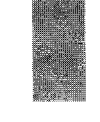
د ـ ﴿﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

هـ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ثانيا: الدليل على الصورة الوضيئة النيرة للإسلام.

أ ـ ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ب ـ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.



٢ ـ المقياس الثاني لكل عمل صالح ناجح، ولكل نهضة نافعة مباركة هو: مراعاة مصالح الأمة وتحقيقها وتكثيرها واستدامتها.

فالشريعة نزلت لتحقيق مصالح الناس، لأن الله جل ثناؤه غني عن الناس.

ولقد استفاضت كتب الفقه ـ عند المسلمين ـ بمفاهيم اعتبار المصالح، والحرص على تحقيقها.. ومما انتظمه فقه المسلمين من هذه المفاهيم والقواعد:

أ ـ «يعظم الأجر بقصد المصلحة العامة».

ب ـ «التصرف منوط بالمصلحة».

ج ـ «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه»: ومن معاني ذلك: أن من يتوسل بالوسائل غير المشروعة تعجلاً منه للحصول على مقصوده، فإن الشرع عامله بضد مقصوده فأوجب حرمانه جزاء فعله واستعجاله.

د ـ «الشرع لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مفسدته خالصة أو راجحة».

إذن، هذان مقياسان رئيسان لتقويم الأفعال والتصرفات والمواقف والأقوال: مقياس الحرص على بقاء صورة الإسلام حسنة نيرة، دون مباشرة أي سبب يؤدي إلى تشويهها.

ومقياس الحرص على مصالح الأمة حرصاً يجتنب كل

سبب يؤدي إلى ما يفسدها، أو يقللها أو يعطلها.

وفي ضوء هذين المقياسين، يتبدى السؤال العقلاني المبدئي المصلحي: هل ما فعل في نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) الماضي: يدخل في نطاق المحافظة على وضاءة صورة الإسلام، وفي دائرة الحرص على مصالح الأمة؟ (لا يعتمد هذا السؤال على نتائج التحقيق الجنائي فيما جرى، فهذه نتائج لما تظهر. وإنما يعتمد السؤال على مقولات تفخر بما حدث وتؤصله وتزكيه)!! إن الجواب عن السؤال الآنف هو: النفي القاطع.

فما جرى لم يحافظ على صورة الإسلام نقية وضيئة، ولم يرع مصالح الأمة، بَلْه تكثيرها.

وهذا هو البرهان:

١ ـ تشويه صورة الإسلام، فالوقائع على الأرض: في وسائل الإعلام والتثقيف، تشهد شهادة موثقة بأن ذلك الفعل قد فتح (ذريعة كبرى) للشرور والمفاسد في هذا المجال.. فتح ذريعة واسعة لتشويه صورة الإسلام على نطاق عالمي، وللقول المتتابع المتكرر:

أ ـ أن الإسلام دين عدواني. وهو قول يشوه حقيقة لا ريب فيها وهي: أن الإسلام دين سلام. ففي السنة توجيه ببذل السلام للعالم، وبأن يسديه المسلم لمن عرف، ولمن لم يعرف.

ب ـ أن الإسلام دين إرهاب وترويع وتخويف. وهو قول يشوه حقيقة أن الإسلام دين يوفر الأمن الشخصي لأشد الناس عداوة له وهم المشركون: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

ج ـ أن الإسلام دين غدر. وهو قول يشوه حقيقة أن الإسلام دين وفاء لا يغدر قط. فالغدر نقيض للسلوك الذي فرضه الإسلام على المسلم. فمن صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

د ـ أن الإسلام دين مدمر للعمران والحضارة. وهو قول يشوه حقيقة إسلامية جليلة، حقيقة أن الله استخلف الناس في الأرض واستعمرهم فيها ليعمروها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. وحقيقة أن الإسلام يمنع هدم هذا العمران، والإفساد في الأرض: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾.

هـ ـ أن القرآن: مصدر للعنف، واستباحة دماء الأبرياء.. يصور هذا المفهوم: ما نشرته ـ مثلا ـ صحيفة أمريكية: إذ نشرت صورة لأحد المتهمين بالإرهاب، وفي يده مصحف.. وهذا إعلام يشوه حقيقة: أن الإسلام قد عدّ القتل لنفس إنسانية واحدة قتلاً للبشرية كلها: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. والمعنى العميق ـ ها

هنا ـ هو: أن الإنسان الفرد يمثل (النوع كله) من حيث احترام الحياة، والمحافظة عليها.

خلاصة هذه النقطة: أن ما فُعل في نيويورك وواشنطن تسبب ـ بلا ريب ـ في تشويه صورة الإسلام.. وبمقياس: أن خير الأعمال هو: الإبقاء على صورة الإسلام حسنة نيرة، بهذا المقياس، يعد ذلك الفعل باطلاً، وجناية تسببت في تشويه الرسالة الخاتمة التي ارتبطت بها مصائر الناس: أحياء وأمواتا.

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حكم على التطويل الزائد في الصلاة المكتوبة بأنه (فتنة في الدين) وقال: " «**أفتان أنت يا معاذ**»؟ وما ذاك إلا لأن التطويل على هذا النحو يوقع الناس في الحرج والمشقة، فيأخذون عن الإسلام ـ من ثم ـ صورة أنه دين عسر وعنت، فينفرون منه فتكون فتنة، وهو سلوك يتناقض مع طبيعة منهج الإسلام في السماحة واليسر والرفق والاعتدال والرحمة.. إذا كان النبي حكم على ذلك السلوك بأنه فتنة وتشويه لصورة الإسلام، فكيف بفعل يفتح ذرائع التشويه كافة، وعلى صعيد العالم الذي ينبغي أن تُبلّغ إليه دعوة الإسلام كما أرادها الله ورسوله: جميلة بهية لا تشوبها شائبة من قول عقيم، أو فعل تنفر منه النفوس نفوراً شديداً وتاماً؟

٢ ـ البرهان الثاني هو: أن ذلك الفعل تسبب في إنزال أفدح الضر والأذى بالأمة ومصالحها.. ومن ذلك: وضع المسلمين ـ في الجملة ـ موضع المشبوه المتهم .. ومراقبتهم ـ كإرهابيين!! في المطارات والطائرات وكل مكان.. وتعرضهم للخوف والأذى المعنوي والمادي.. وسن قوانين تصنف العرب والمسلمين في دائرة الإجرام، بهذه الطريقة أو تلك.. وجعل المسلم السوي يشعر بالخزي مما جرى.. وتمكين الدوائر المعادية من العمل على مضاعفة خطط تشويه سمعة المسلمين.. إلى غير ذلك من صور الضر والأذى والخسران التي لحقت بالمسلمين، في الغرب، وفي العالم كله، وفي العالم الإسلامي نفسه.

ألا إنها فتنة طامة باشرها أو زكاها أناس من المسلمين (وفق كلامهم) فعمّت المسلمين أجمعين، بل انعكست على دين الإسلام نفسه.. وهذه الفتنة مشاقة لله الذي قال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، بل تعدتهم إلى الأمة كلها.. والكرب الأليم الذي تعيشه الأمة العربية الإسلامية دليل على ذلك.. يقول ابن العربي: «واتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح».

ومن هنا كان السكوت عمن يبتدر فتنة تضر بالإسلام والمسلمين، نوعاً من التعاون على الإثم والعدوان. والله يقول

﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ﴾.. يقول القرطبي - في تفسير هذه الآية - «ويجب الإعراض عن المتعدي، وترك النصر له، ورده عما هو عليه».. فالإسلام أولى بالحرص. والحفاظ على مصالح الأمة أولى بالتقديم: ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

عندما (تفخخ)
مكافحة الإرهاب..
بالأجندة الصهيونية

في الوقت الذي تطلب فيه الإدارة الأمريكية من العالم العربي الإسلامي: التعاون معها في مكافحة الإرهاب، تعمد إلى ما يضعف هذا التعاون، وبصورة تبدو متناقضة مع المصالح العليا الأمريكية.

ومن ذلك: أن أمريكا عمدت إلى وضع حركات التحرير الوطني في فلسطين ولبنان في (دائرة الإرهاب).

فما معنى ذلك؟.. قد يكون لدى الأمريكيين (معنى غيبي) لا ندركه، ولا نعقله من حيث إنه معنى لا يمكن التدليل عليه لا عقلياً، ولا علمياً. بيد أن العالم العربي الإسلامي مضطر إلى أن يفهم:

١ ـ أن معنى هذا الموقف: إلغاء (الشرعية الدولية). فقد استقر المجتمع الدولي على أن إسرائيل تحتل الضفة والقطاع الفلسطينيين. وثمة وثيقة جماعية تؤكد هذا الإجماع الدولي وتوثقه.. وهذه الوثيقة هي قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢

بتاريخ ١٠/١١/٢٠٠١م.

الصـــادر في ٢٢ نوفـمـبـر ١٩٦٧ الذي تـنص الفـقـرة (أ) منه على: «إنسـحاب القوات المسلحـة الإسرائيلية من الأراضـي التي احتلتها في النزاع الأخير»، أي حرب عام ١٩٦٧ .

وهذا النص يؤكد بالدلالات اللغوية والقانونية والسياسية: أن إسرائيل تحتل الأرض الفلسطينية المشار إليها.

٢ ـ ومـعنى الموقف الأمـريكي: إلـغـاء القـانون الدولي الذي يكفل لـكل شـعب ابـتلي بالاحـتـلال: أن يكافـح المحـتلين حـتى تتحرر أرضـه من الاحتلال، ويظفـر بحقه ـ كسائـر الشعوب ـ في الحريـة والاستقـلال (نذكّر بأن الشـعب الأمريكي كان من أوائل الشـعوب التي مارسـت الكفاح ضـد المحتلين في العـصر الحديـث، كمـا نذكّر بأنه ليس من العـدل: ألا يـحب الأمريكـيون لغيرهـم ما أحبوه لأنفسـهم).

خـلاصـة الـنقطتين الســابقـتين: أن هنـاك أرضـاً مـحـتلة، وأن القـانون الدولي يتـيح لمن احـتلت أرضــهم أن يكافـحـوا المحـتل. ولذا، فـإن القـانون الدولي يمنـع من تسـمـيـة هؤلاء المكافـحين بالإرهـابيين. فــهل تريد أمــريكـا: إلغــاء الـقــانون الـدولي؟.. ولمصلحة من تفعل ذلك؟

٣ ـ ومــعـنـاه: انقــلاب أمــريكـي على الســلوك الأمــريـكي نفسـه.. فبعد حرب ١٩٦٧. اتجهت السياسـة الأمريكية وجـهة إيجابية نسـبية بإزاء القضـية الفلسطينيـة، لعل من بواكيرها

ما قاله وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (روجرز) إذ قال: «لن يكون هناك سلام دائم بدون حل عادل لهؤلاء الفلسطينيين الذين جعلتهم حربا ١٩٤٨ و١٩٦٧ بلا وطن».. ولقد اقترح الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر) هذا الاقتراح: «يجب أن يكون هناك وطن للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا لسنوات عديدة. ومن الواضح: أن حصول الفلسطينيين على وطن، وحل مشكلة اللاجئين، أمر ذو أهمية قصوى(١)».. ومنذ ذلك الحين لا تفتأ الولايات المتحدة تقر بأن الضفة والقطاع أرض احتلتها إسرائيل، ويجب أن تجلو عنها.. فهل حصل انقلاب أمريكي على المسلمات الأمريكية نفسها؟.. ومتى؟.. في هذه الظروف التي تتطلب مزيداً من العدل والمسؤولية في السياسة الدولية لأسباب كثيرة، من أهمها: تطهير الكوكب الأرضي من كل مناخ يمكن أن يتخلق أو يتفاقم فيه إرهاب.

٤ ـ ومعناه: التورط في المساواة الظالمة: مساواة المفسدين في الأرض، أي الإرهابيين، بالمصلحين فيها وهم الذين يعمرونها ويصلحونها بالكفاح الشريف الحق النبيل من أجل الحرية والاستقلال.

٥ ـ ومعناه إرهاب المكافحين في سبيل حقوقهم المشروعة

(١) من العدل أن نقول: إن الرئيس الأمريكي جورج بوش قد نادى بقيام دولة فلسطينية. بيد أن المهم هو مفهوم الدولة وصلاحيتها ووجودها الناجز.

حتى يكفوا عن الكفاح ويبيتوا النية على التوبة الأبدية منه.

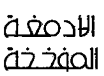
٦ ـ ومعناه: التشكيك العاصف والقاتل في «أهداف» الحملة الدولية المضادة للإرهاب. بمعنى توليد قناعات اضطرارية وراسخة بأن أهداف هذه الحملة، أو من أهدافها الحيوية: إنزال الأجندة الصهيونية الخاصة إلى الميدان.. وتطبيقها تحت ستار: مكافحة الإرهاب.

وهذا معنى خطر جداً، ومدمر حقاً.

معنى خطر تترتب عليه هذه القناعات:

أ ـ أن الإحجام أو الروغان عن تحديد مفهوم مضبوط للإرهاب، مقصود به: أن يظل المفهوم عائماً غائماً سائحاً مائعاً متسعاً ـ بوجه خاص ـ للمفاهيم الصهيونية المتعلقة بالإرهاب.

ب ـ أن ما تقوم به إسرائيل ليس إرهابا.. ونفي الإرهاب عن الأفعال الصهيونية في الأرض المحتلة، يفقد مصطلح الإرهاب معناه العلمي، ويجرده من مضامينه العملية. إذ ما يكون الإرهاب إنْ لم يكن هو احتلال الأرض بالقوة.. وترويع الآمنين وقصفهم بالطائرات والدبابات والصواريخ.. وحصار الشعب الفلسطيني كله وتجويعه؟! ما صورة الإرهاب ـ الذي يجب أن يقاوم ـ إذا لم تكن صورته: الخطف، والقتل، والاغتيال، وتخريب البيوت



والمزارع، وسائر البنى التحتية، والمؤسسات المدنية.. وهل فعل الإرهاب في نيويورك وواشنطن شيئاً غير القتل والغدر والترويع والتخريب؟.. ومن الملائم ـ هنا ـ : إيراد كلام دقيق وصادق وعميق لمفكر يهودي أمريكي هو (نعوم تشومسكي). فقد قال: «إن مصطلح الإرهاب يستخدم على نطاق واسع بما يمكن أن يطلق عليه (الإرهاب الجزئي): إرهاب الجماعات الصغيرة، والجماعات المهمشة، ولا يطلق على إرهاب الدولة القوية. ولقد قامت إسرائيل بقصف مقار منظمة التحرير في تونس، وقتلت نحو ٧٥ شخصاً مستخدمة في ذلك قنابل (سمارت). وهذا أمر بغيض تماماً. ولكن نحن نعتبر عنفنا ليس إرهاباً. وإنما نعتبر رد الآخرين هو الإرهاب».

جـ ـ أن حشر حركات التحرير في فلسطين ولبنان في جحر الإرهاب مطلب صهيوني بحت. وإلا فإن هذه الحركات لم تفجر في نيويورك وواشنطن، ولم تضرب المصالح الأمريكية في أي مكان في العالم، على الرغم مما تشعر به على الدوام من دعم أمريكي مطلق لإسرائيل.. يُضم إلى ذلك: أن هذه الحركات لا علاقة لها بمن توجه إليهم التهم أو السهام في أفغانستان.. وهذا كله يرسخ اليقين بأن وضع حركات التحرير في فلسطين ولبنان في دائرة الإرهاب، إنما هو

تطبيق لأجندة صهيونية معروفة.. ومن المؤكد أن هذا ليس من مصلحة الولايات المتحدة، لا على المدى القريب، ولا على المدى البعيد، إلا إذا كانت أمريكا قد قررت أن (الأهواء الصهيونية) هي مصلحتها، وهي أمنها القومي.

(أزمة التفكير)..
في الأزمة

الاشتغال بـ(الفكر) أحب إلينا وأروح. بيد أن الأحداث السياسية المتلاحقة كثيراً ما توجه الاهتمام إليها. وليس معنى ذلك: أن (التحليل السياسي) مجرد من الفكر. إذ إن هناك (الفكر السياسي) الذي يرى الأحداث من خلال معايير أو مقاييس منهجية، ويحللها وفق ذلك.

وإنما المقصود بالفكر ـ ها هنا ـ المضمون والأسلوب المباشران، والمنهج الذي يحكم المضمون والأسلوب.

وفي هذا المقال نعود إلى ما نؤثر ونحب.

لقد ولدت الأزمة العالمية الراهنة أو كشفت وأظهرت أزمات أخرى عديدة: أزمة العلاقة بين الحرية والأمن.. والأزمة الاقتصادية.. وأزمة محاولات تحويل الأزمة إلى صراع بين الأديان والحضارات.. والأزمة الإعلامية. فالإعلام الذي وصف دوماً بأنه (إعلام مستقل ونزيه ومحايد)، كشفت الأزمة عن أنه (إعلام مسيس) ـ والحكم نسبي طبعاً ـ يبث ما تريده أجهزة الأمن، وأنه

بتاريخ ٢٤/١١/٢٠٠١م.

إعلام فقد ـ في الجملة ـ استقلاله ونزاهته وحياده في الخبر والمعلومة والتحليل وتورط في (التعميم) الجائر، إذ ليس من العدالة أن نتخذ من الحالات الخاصة أو الاستثنائية أو الشاذة مسوغاً لإطلاق الأحكام العامة.

وما هو أضر من ذلك كله وأسوأ وأفدح أن الأزمة العالمية الراهنة كشفت أزمة الأزمات: كشفت (أزمة التفكير في الأزمة).

فليس أسوأ ما في الأمر أن تقع أزمة. فلن تخلو حياة البشر من أزمات: صغرت أم كبرت، محلية أم عالمية. وإنما أسوأ ما في الأمر: أن تقع (أزمة التفكير في الأزمة).

وهذا ما وقع في الحقيقة والواقع.

وليس من التفكير السديد: إطلاق الكلام وإرساله بلا سند ولا قرينة ولا دليل.

ومن هنا: فإن سائر المقال ـ بعد التمهيد الآنف ـ منظومة من النماذج التي هي ـ في الوقت نفسه ـ أسانيد وقرائن وأدلة:

١ ـ كشفت الأزمة العالمية الراهنة عن (أزمة التعميم الخاطئ في التفكير): إثباتاً ونفياً. فبعد ما جرى في نيويورك وواشنطن: برز فريقان كبيران يحمل كل منهما: خطأ الإطلاق والتعميم في التصور والحكم.

أ ـ الفريق الأول هو: الإعلام السياسي الغربي، والأمريكي بوجه خاص، وهو إعلام مرتبط بدوائر سياسية معينة. إن هذا

الفريق استغل التهم الموجهة إلى بعض العرب والمسلمين، فأخذ يرمي العرب أجمعين، والمسلمين كافة بتهمة العنف والإرهاب.. وهذه أزمة في التفكير بلا ريب. فحين ترتكب فئة ما في أمة ما (مع التسليم الافتراضي بأن الأدلة الجنائية كاملة وقاطعة) خطأ أو جريمة، فإن التفكير المنهجي السوي ـ المؤسس على العدالة القانونية والقضائية، وعلى الأصول الأخلاقية ـ يحصر الخطأ أو الجريمة في الفاعلين فحسب. أما التفكير المأزوم المعوج فيلجأ إلى التعميم. وهذا هو ـ بالضبط ـ ما تورط فيه الإعلام السياسي الغربي، أو تورط فيه الكثير من هذا الإعلام.. ومن الدلائل على أن هذا التفكير منحرف: أن أصحابه أنفسهم لا يلتزمون به في كل حال، من حيث إن الالتزام به ـ بإطلاق ـ يدين أممهم كلها. فالاستعمار باشره أقوام ينتمون إلى الجنس الأبيض، وإلى المسيحية.. والنازية والفاشية الطاغيتان الدمويتان الإرهابيتان نبتتا في بيئة بيضاء، وتنتميان إلى العالم المسيحي.. وهذه الصورة تنتظم منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي في بريطانيا، ومنظمة الباسك في إسبانيا والمنظمات الإرهابية الكثيرة العدد في الولايات المتحدة. فهل يرضى هؤلاء التعميميون الغربيون بأن نرمي البيض أجمعين، والمسيحيين كلهم، بتهم الجور والنهب والإذلال والطغيان والاستبداد والعنف والإرهاب والعنصرية وإشعال الحروب؟.. وهكذا تنتهي أزمة التفكير التعميمي، ليس بظلم الآخر، وإنما تنتهي

أيضا بإحراج الذات، وإضعاف حجتها، وإثبات تخلفها الفكري، وبعدها عن الموازين العادلة في القانون والقضاء والأخلاق.

ب ـ الفريق الثاني الذي أظهرت الأزمة العالمية أنه يعاني (أزمة التفكير في الأزمة) هو فريق من المسلمين. فلئن تمثلت (أزمة تفكير) الفريق الغربي في محاولة إثبات تهمة الإرهاب على المسلمين أجمعين، فإن أزمة تفكير الفريق المسلم تمثلت في (النفي المطلق)، أي إصدار حكم عام ببراءة المسلمين جميعاً من تهمة العنف والإرهاب.. نحن نقدر قيمة التمسك والحرص على طلب الدليل والبرهان في حادثة معينة. بيد أن هذا شيء آخر يختلف عن الادعاء بأن الامة الاسلامية لا يوجد فيها ولن يوجد فيها أفراد أو فئات تجنح إلى الغلو والعنف والإرهاب والإفساد في الأرض. فهذا الادعاء برهان على أن من المسلمين من يعاني (أزمة التفكير في الأزمة).. ذلك أن من القرائن على وجود هذه الأزمة: مراغمة الوقائع، أو إنكار الواقع الموضوعي المتمثل في ظواهر إرهاب قام بها أناس ينتمون إلى المسلمين: في مصر، والجزائر، والسعودية، واليمن، والسودان، والفلبين.. وخلافنا مع الغرب ليس حول هذه الوقائع، وإنما لأن الإعلام الغربي ـ في الجملة ـ ارتكب خطأ فكرياً فاحشاً وهو: خطأ تعميم هذه الوقائع على الأمة الإسلامية بأسرها: وضعاً وإدانة وتجريماً وتشويهاً وتنفيراً.

٢ ـ وكشفت الأزمة العالمية الراهنة عن (أزمة التفكير) في حل

الأزمة وعلاجها.

وهذان نموذجان من هذه الأزمة الفكرية:

أ ـ النموذج الأول يعبر عن الذين رفعوا شعار: أن (الرجوع إلى الإسلام هو الحل).. ونحن موقنون بأن دين الله الحق يهدي إلى التي هي أقوم في كل شيء. بيد أن الإجمال والإبهام لا يصلحان لمعالجة حالة معقدة كهذه. **أولاً:** لأن ثمة مفاهيم فاسدة تلبست بالدين وليست منه، يظن أصحابها أنها نوع من الرجوع إلى الإسلام أيضاً.. **وثانياً:** لأن المنحرفين باسم الدين يحملون الشعار الإسلامي نفسه. ولذا فإن العلاج لا يكفي فيه الإجمال، بل لا بد من التفصيل المستفيض الذي يصحح المفاهيم، وينقض الغلو، ويؤصل منهج الاعتدال والتوسط، وينتصر للإسلام الحق: عزائمه ومقاصده وجماله وكماله. وإلا فان الخوارج كانوا يزايدون ـ بالإسلام ـ على منهج الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه!!

ب ـ النموذج الثاني، ويعبر عنه الذين رفعوا شعار: أن (الديمقراطية هي الحل). فالسبب الأعظم للإرهاب ـ في نظر هؤلاء ـ هو الكبت والقهر والاستبداد. فإذا جاءت الديمقراطية زال الإرهاب وانقرض.. ومما لا شك فيه أن لـ«الحرية» مكانتها العظمى، وأثرها العميق، ليس في التعبير السياسي فحسب، ولكن لها مكانتها وأثرها في تحقيق توحيد الله جل ثناؤه، إذ لا يتحقق

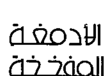
التوحيد الخالص إلا بوجود جوهره في القلب والعقل وهو التحرر التام من الاستعباد والقهر والاستبداد. كما أن للحرية أثرها الحاسم في تكوين (شخصية) الفرد من حيث التربية والتعليم.. بيد أن تعليق زوال الإرهاب بوجود الديمقراطية، دليل على (أزمة التفكير في الأزمة).. ففي بريطانيا ديمقراطية تتيح حرية التعبير والتنظيم السياسي. ومع ذلك ظهر فيها الجيش الجمهوري الأيرلندي الذي أرهب هذه الدولة ولا يزال يرهبها.. وفي الهند ديمقراطية.. ومع ذلك لم يُزل العنف والإرهاب منها، سواء تبدى هذا العنف في الصراع الدامي بين الطوائف، أو في الاغتيالات السياسية التي ذهب ضحيتها، مثلاً- أنديرا غاندي، وابنها راجيف.. وفي أسبانيا ديمقراطية، ومع ذلك ظهرت منظمة الباسك الإرهابية.. وفي أمريكا ديمقراطية ومع ذلك وجد العنف والإرهاب فيها.. ففي أمريكا مئات المنظمات الإرهابية. وفيها العنف الفردي والعائلي. وفيها اغتيل أكثر من رئيس وزعيم. وفيها فجر المبنى الاتحادي في أوكلاهوما على يد رجل تربى في بيئة ديمقراطية.. وفي إسرائيل ديمقراطية.. ومع ذلك اغتيل إسحاق رابين على يد رجل نشأ في ظل الديمقراطية.. ثم إن ديمقراطية إسرائيل لم تعصمها من العنف والإرهاب من حيث إنها هي كلها كيان إرهابي - فكري وتطبيقي - بالمعنى العلمي للمصطلح.. وبدهي أن هذه السياقات ليست تقليلاً لشأن الحريات العامة، وإنما هي سياقات

قصد بها كشف الأزمة في التفكير الذي يزعم أن في الديمقراطية (حلاً سحريا) للعنف والإرهاب.. فهذا الوهم يشل الإرادة والتفكير عن البحث عن علاجات أخرى.

٣ ـ وكشفت الأزمة عن اعوجاج مروع في (التفكير الديني).. فمن الناس من قال: إن أمريكا ظلمت وضربت. ومن هنا، فإن ما وقع لها هو معاقبة بالمثل. واستشهد هؤلاء بالآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾.. وهذا تخبط فكري. (فالمثلية) ليست مطلقة، بل هي مقيدة ومضبوطة بمنهج العدل والأخلاق واجتناب ما هو محرم بإطلاق لا استثناء فيه. فالمثلية لا تتعدى الظالم إلى الأبرياء معصومي الدماء.. ولنكن صرحاء إلى درجة الصدمة فنقول: إذا زنا فاجر بأخت رجل، فليس من المثلية المقصودة في القرآن: أن يزني الرجل المفجوع في عرضه بأخت الرجل الفاجر. لأن الإسلام ألغى قاعدة عمرو بن كلثوم في المزايدة الظالمة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

٤ ـ وكشفت الأزمة عن اعوجاج مروع في (التفكير غير الديني) أو الذي يطلق عليه الناس أوصاف، الليبرالي أو العلماني أو الحداثي أو العصراني.. فقد صور هذا النفر المشكلة بأنها تكمن في اللحى وأن حلق اللحى في أفغانستان مؤشر تقدم! ثم عمد فريق إلى التعريف بأن أصل البلاء هو المصطلحات الإسلامية، بل الإسلام نفسه.. وهذا خبل في التفكير. فلم يقل أحد: إن كل ملتح



هو ملاك.. واعتماد (الشكلية) مقياساً للتقدم أو التأخر برهان على عقم التفكير وانحرافه. فهناك ملتحون متقدمون مستقيمون، وآخرون على الضد من ذلك.. ولم يقل أحد: إن الحليقين أجمعين أطهار تقدميون. فمنهم الدكتاتور، ومنهم الحرامي، وتاجر المخدرات، وتاجر الأعراض، ومفجر المباني، والعنصري، والإعلامي المرجف الكذاب. وهتلر وموسوليني وشارون وموفاز ومكفاي غير ملتحين.

(أزمة التفكير)
في الأزمة:
(سجن العقل البشري)
بين: إما..وإما

«متعصب هو ذلك الشخص الذي لا يفكر، ومجنون هو ذلك الذي لا يستطيع أن يفكر. أما الذي لا يجرؤ على التفكير، فليس من شك في أنه عبد من العبيد».. (وليام درموند).

ونضيف إلى هذه الحكمة: «وخائب ومؤذ هو ذلك الذي يفكر، ولكن بطريقة خاطئة مدمرة». فإذا كان من المهم أن يفكر الإنسان، فإن الشرط المنهجي الضروري لذلك هو: أن يفكر بطريقة صحيحة، وإلا امتلأت الأرض شروراً وآثاماً وجرائم، فإنْ من جريمة في الأرض إلا وراءها (تفكير شرير). فالجريمة - أيّ جريمة - هي (الصورة المادية المرئية) للفكر الخاطئ أو المنحرف.

هذا هو المقال الثاني في (أزمة التفكير.. في الأزمة).. ولقد قدّم مقال الأسبوع الماضي نماذج ومظاهر وصوراً من أزمة التفكير في الأزمة العالمية الراهنة.

وفي هذا المقال، مزيد من هذه النماذج والمظاهر والصور:

١ - بعد عبارة حملت معنى أن الحرب على الإرهاب، إنما هي

بتاريخ ١/١٢/٢٠٠١م.

(حملة صليبية)، ارتفعت معدلات التوتر الديني في عالمنا هذا الذي أوشك أن يتورط في حرب دينية دونها ـ في الأذى والخطر والضرر والفتنة الكوكبية ـ ما وقع في نيويورك وواشنطن في سبتمبر الماضي. بيد أن معدلات التوتر الديني انخفضت ـ نسبياً ـ بعد الاعتذار الرسمي عن تلك العبارة المهيجة.

وفي الحقيقة، ليس هناك إنسان عاقل ومسؤول وسوي وذو ضمير مانع من (استغلال الدين) في تطبيق مخططات شريرة، يريد أو يبتهج بأن يستعر الكوكب بنيران حرب دينية يتلظى بها الجميع، وتقصم ظهر الجميع.

لكن، ليس من التفكير السليم: نفي أن تكون الحملة دينية ـ على مستوى القول والتلميحات اللفظية والتصرفات الاستفزازية ـ في حين أن هناك ما يولد الانطباع بأنها كذلك.

ومن القرائن التي تولد هذا الانطباع:

أولاً ـ القرائن الفعلية، ومنها ـ مثلاً ـ: سن قوانين استثنائية تقيّد حريّات المسلمين ـ بوجه خاص ـ في الغرب وفي الولايات المتحدة خاصة. ومنها: استمرار الإجراءات الأمنية التعسفية ضد العرب والمسلمين. يضم إلى ذلك: ما يتعرض له هؤلاء من أذى متنوع الصور في حياتهم العامة والخاصة.

ثانياً ـ القرائن القولية، وتتمثل في الحملة الإعلامية المفلتة من المعايير الأخلاقية، والضوابط القانونية، والقيم الحضارية، وأسس

العلاقات الدولية. ولقد انتظمت هذه الحملة المسلمين أجمعين ـ بصفتهم ـ كما انصبت على الإسلام نفسه. وينبغي التركيز ـ عند هذا المفصل من السياق ـ على نقط ثلاث.

١ ـ نقطة: أنه من أزمة التفكير الاستهانة بهذه الحملات الإعلامية. فالحرب أولها كلام، وعنوانها كلام.

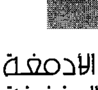
٢ ـ ونقطة: أن الإعلام ليس (سائبًا) في الغرب إلى الدرجة التي يتخيلها الواهمون، هنا وهناك. فالعلاقة أو التنسيق (قائم ومستمر) بين وسائل الإعلام وبين الأجهزة الأمنية والسياسية في الولايات المتحدة وغيرها.

٣ ـ ونقطة: الخدمة الإعلامية التأصيلية للكلمات الموحية بأن الحرب دينية. مثلاً: بعد أن تفوه رئيس وزراء إيطاليا (بيرلسكوني) بما تفوّه به من إساءة طويلة المدى للإسلام والمسلمين، عمدت صحيفة أمريكية معروفة بارتباطها القوي بمواقع النفوذ هناك ـ وهي صحيفة «وول ستريت جورنال» ـ عمدت إلى الدفاع المستبسل عن بيرلسكوني، وأصّلت ما قال، وزادت عليه.

إذن، من أزمة التفكير في الأزمة: أن يُعلن ألا حرب دينية في الوقت الذي يسمح فيه، أو يُتسامح مع ظهور قرائن تولّد الانطباع بأن الحرب دينية. وقد يقال: ليس ثمة خطأ في التفكير، فالمراد ـ فعلاً ـ هو حرب دينية. ونقول: إن هذا المراد نفسه دليل على أزمة

في التفكير. **أولاً:** لأن تكرار الحروب الصليبية لا يدل على تفكير سديد. **وثانياً:** لأن الحرب الدينية نقيض فكري للمنهج العلماني الذي تتبناه الولايات المتحدة. **وثالثاً:** لأن الحرب الدينية الآن نسف محقق وواسع النطاق للأمن الدولي والسلام العالمي. ولا يسعى لتقويض الأمن والسلام الدوليين إلا مأزوم التفكير.

٢ ـ من صور أزمة التفكير في الأزمة: المسارعة السياسية الإعلامية المبرمجة ـ والمشحونة بأعلى درجات الخبث والتضليل والمخادعة ـ إلى (إجهاض السؤال المركزي الفاصل) وإلى تحريفه. فقد كان أول سؤال يفد إلى ذهن الأمريكيين هو: لماذا يكرهنا الناس إلى هذا الحد؟.. والمقصود بالناس هم العرب والمسلمون، ذلك لأن وسائل الإعلام الأمريكية بكّرت بإلقاء التهم على العرب والمسلمين. وللجواب عن هذا السؤال الكبير، دخلت الصهيونية ومن والاها على الخط، وأخذت أجهزة الإعلام المرتبطة والمتأثرة بها تجيب بإسهاب، وتلخص جوابها في: أن العرب والمسلمين يكرهون أمريكا لحريتها وحضارتها وديانتها، وهذا تفكير مقلوب. فالجواب الصحيح عن السؤال المشروع للشعب الأمريكي هو: ألا مشكلة بين المسلمين وأمريكا الحقيقية، وسبب الكراهية الحقيقي هو: الابتزاز الصهيوني للولايات المتحدة، وهو ابتزاز جعل هذه الدولة تقف ـ بلا تحفظ ـ مع الظلم الصهيوني، ومن ثم كانت الكراهية. لكن الدوائر الصهيونية أرادت أن يظل (سبب الكراهية الحقيقي)



مجهولاً، أو معتماً عليه، ليس من أجل مصلحة أمريكا طبعاً، وإنما من أجل خدمة المؤسسة الصهيونية التي تصر على ألا يعرف الأمريكيون أن الصهيونية هي شؤم عليهم تسببت في كراهية عالم ضخم لهم، أو للسياسات الخارجية لبلادهم. لأن الصهيونية تعلم لو أن الشعب الأمريكي عرف الحقيقة، لاتجهت كراهيته إليها من حيث إنها تسببت في كراهية الآخرين له. ولا بد ـ هنا ـ من ضابط فكري للكلم، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، وهي ضوابط ثلاثة. **أولها:** أن التعبير عن الكراهية، أو لنقل: التعبير عن الغضب ـ إذا وجدت أسبابه الحقيقية ـ ينبغي أن يكون مشروعاً في الباعث والوسيلة. فالإسلام الذي أقرّ غريزة الغضب في بني آدم جميعاً، شرّع ما يعبّر عنها دون تجاوز، وبلا ظلم ولا فجور. **ثاني** هذه الضوابط: أن المسلمين الغاضبين من أمريكا ـ بسبب الجور الصهيوني ـ لم يفوّضوا أحداً بالتعبير عن غضبهم بتلك الطريقة الهمجية الفاسدة المفسدة. فإسلامهم يحرم عليهم هذا التفويض: ﴿**وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ**﴾. **ثالث** هذه الضوابط: أن الإرهاب لم يخدم القضية الفلسطينية، بل على العكس من ذلك: قدّم خدمة كبرى مجانية للمؤسسة الصهيونية.

خلاصة هذه النقطة: أن الدوائر الصهيونية أرادت إجهاض السؤال الأمريكي الكبير وتحريفه. وتكون الولايات المتحدة قد تلبّست بأزمة التفكير في الأزمة إذا اعتقدت أن المسلمين يغضبون

عليها لحريتها وحضارتها وقيمها، وإذا ظلت تفكر كما تريد الصهيونية. فما تريده الصهيونية هو: أن تصطدم الولايات المتحدة مع العالم العربي الإسلامي، وأن ينحرف التفكير الأمريكي عن طريق البحث عن الأسباب الحقيقية للغضب المشروع على السياسة الخارجية الأمريكية.

٣ ـ الصورة الثالثة من أزمة التفكير في الأزمة: (سجن العقل البشري بين: إما.. وإما) الوحيدتين العقيمتين المنقطعتين:

أ ـ طرف قال لنا: إن العالم اليوم قد انقسم إلى فسطاطين. (الفسطاط: الخيمة، أو الجماعة، أو الحمى، أو الأبنية المعينة لقوم معينين).. قال: إن العالم انقسم إلى فسطاطين: فسطاط الإيمان الخالص الذي لا نفاق فيه، وفسطاط الكفر والنفاق، وأن على المسلمين أن يحدّدوا موقفهم وأن يختاروا، إما فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وإما فسطاط الكفر والنفاق.

وفسطاط الإيمان المقصود بالنداء، هو ذلك الذي في أفغانستان، فمن كان فيه كان مؤمناً خالصاً مبرأً من الكفر والنفاق، ومن كان في غيره فهو إذن في فسطاط الكفر والنفاق.

فأي تفكير هذا؟، ولماذا تسجن عقولنا بين: إما.. وإما؟، ومن قال ذلك وشرّعه: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾؟.

إننا مسلمون مؤمنون بحمد الله، ولسنا في واحدة من (الإمايين) العقيمتين هاتين. لسنا في فسطاط الكفر، ولسنا في

فسطاط الذين يفسّرون الإسلام بلا نهج صحيح، ويصدرون الأحكام بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

أإذا خالف مسلم أقواماً يحتكرون الصواب، ويوزّعون الكفر على المسلمين بلا ورع، اتّهم بأنه في فسطاط الكفر والنفاق؟ ما هذه العبقرية في الحرص على إخراج المسلمين من الإسلام؟.

ب ـ الطرف الثاني قال لنا: إما أن تكونوا معنا، وإما أن تكونوا مع الإرهاب. هكذا أيضاً يُسجن العقل البشري، وتحبس خيارات الإرادة الإنسانية بين محبسي: إما.. وإما فحسب!.

نحن لسنا مع الإرهاب، وفي الوقت نفسه لسنا مع الوسائل والأساليب التي تزيد رقعة الإرهاب. ومن يعارض الوسائل الخاطئة (ومنها عدم تحديد مفهوم مضبوط للإرهاب)، ليس مؤيداً للإرهاب في الحقيقة. ومن يؤيد كل وسيلة خاطئة في مكافحة الإرهاب ليس معارضاً للإرهاب في الحقيقة. وللخروج من سجن: إما.. وإما، تعالوا نتفق على مفهوم محدد للإرهاب، وعلى الوسائل الناجعة لتطهير الأرض من رجسه. وإنه لمن التفكير السديد والعادل: أن الذين يطالبون العالم بالوقوف معهم ضد الإرهاب، عليهم أن يقتنعوا بأن من حق العالم أن يشارك في تحديد مفهوم الإرهاب، وأن يشارك في تحديد الوسائل التي تقضي عليه، ولا تطيل عمره.

ولسنا بدعاً في هذا العالم. فالأوروبيون أجمعون ضد الإرهاب،

لكنهم يرفضون أن يحبسوا بين: إما.. وإما. ففي السويد ـ مثلاً ـ: كشف استطلاع للرأي ـ أجرته القناة الرابعة وجريدة «إكسبريس» الواسعة الانتشار ـ أن غالبية السويديين ضد الإرهاب، وفي الوقت نفسه، تعارض هذه الغالبية (الفوضى) السياسية والأمنية والإعلامية في مكافحة الإرهاب.

وثمة معارضات دولية هائلة لجعل حملة مكافحة الإرهاب غطاء لتصفية حسابات مؤجلة، أو تنفيذ أجندة سابقة عن طريق نقل الحرب من أفغانستان إلى بلدان أخرى.. ومع هؤلاء وأولئك الحق في ذلك. فغموض الأهداف وتناسلها يشكك ـ بجد وعمق ـ في مصداقية وعدالة ونزاهة استراتيجية مناهضة الإرهاب. وهو تشكيك يخدم الإرهاب بجنون وإسراف، وهذا ليس من مصلحة الولايات المتحدة التي فجعها الإرهابيون أيما فجيعة.. ثم من حق هؤلاء: الخروج من سجن: إما.. وإما، إلى إما ثالثة أو رابعة وهي: التعاون الدولي الوثيق والنشط ضد هذا الوباء، وفق مفهوم أوضح، وثقة متبادلة أقوى وأصدق، ووسائل أسلم وأنجع.

وهذه الجامعات والمدارس الدينية.. ما شأنها؟

هل نحن في عصر تحريف الأمور عن مواضعها، وقلب الحقائق، أو في عصر استراتيجيات نفسية وسياسية وإعلامية تتعمد أو تحترف (إسقاط خطايا الذات على الآخرين) وهي حرفة تعارفت الدراسات النفسية على تسميتها بـ (مرض الإسقاط)؟

في المبتدأ لن نتورط في تبرئة العرب والمسلمين من الأخطاء والخطايا، فهذه تبرئة تتجافى عن الطبيعة البشرية، وعن الواقع الماثل الطافح بالأخطاء من كل نوع. بيد أنه حسبُ المسلمين أخطاؤهم.. ومن الظلم البواح: أن يحمّلوا أوزار قوم آخرين، وأن يسقط عليهم ما تعج به حياة هؤلاء القوم، والملحظ الأشد حزناً ـ هنا ـ أن طوائف من المسلمين صدقت أو كادت تصدق بأن ما يُسقط عليها هو شيء صحيح بإطلاق، وأن هذا الشيء من خصائصها وسماتها التي لا تنفك عنها.. وهذا الشك العاصف في الذات مسبب بالقصف الإعلامي المركز والمستمر والذي يلح ـ مثلا ـ على أن العرب والمسلمين عدوانيون عنيفون.. وشهوانيون.. وإنه لكاذب

بتاريخ ١٥/١٢/٢٠٠١م.

من ينكر أن في العرب والمسلمين شيئاً من ذلك، ولكن بالاستقراء العلمي يتبين: أن المسلمين (هواة) بالنسبة إلى (الخبراء المتخصصين) في هذه المجالات.. والغربيون - إلا العقلاء المنضبطين منهم - هؤلاء هم الخبراء المتخصصون العريقون في صناعة الموت.

كم عدد القتلى في الحروب والصراعات التي كان المسلمون طرفاً فيها عبر ١٤١٠ سنوات؟ هو عدد قليل، لا يساوي واحداً في المائة ألف من عدد القتلى في الحروب والصراعات التي أوقدها وقادها وخاضها غربيون في القرن العشرين.. ومن هؤلاء القتلى ٢٧ مليون عسكري في الحربين العالميتين: الأولى والثانية.. ويقدر عدد المدنيين من ضحايا هاتين الحربين بـ ١٣ مليوناً من النساء والأطفال وكبار السن في أثناء الحرب العالمية الأولى، ونحو ٢٠ مليوناً في الحرب العالمية الثانية.. وبلغ مجموع القتلى في القرن العشرين - لأسباب دينية وأيديولوجية - وبعيداً عن المعارك الحربية - بلغ ٨٠ مليون إنسان. وفي الجملة فإن ١٦٧ مليون إنسان لقوا مصرعهم في مجازر وقفت خلفها السياسة.. ومعظم هذه المجازر دبرها وقادها غربيون.. هكذا تحدث التاريخ الموثوق.. فمن مسعّر الحروب على الحقيقة؟.. وليس هناك امرؤ أمين صاحب ضمير يستطيع أن ينفي: أن من العرب والمسلمين من استبد به نزق الشهوات. ولكن هل الغربيون أطهار عفيفون



زاهدون في هذه المسـألة؟ إن الانفجار الشهواني قد بلغ الذروة هناك، بعد أن تحطمت قيم ومعايير عديدة، وهو انفجار تخطى العلاقة بين الذكر والأنثى إلى المعاشرة المثلية.. ولسنا ننصر شهوة عربية ملهوفة على شهوة غربية ملهوفة. فالسوء هو السوء، سواء صدر عن هذا الجنس أو ذاك، ومورس في هذه البيئة أو تلك.. ولكنا نعجب من موقف، ومن تفكير من يستكثر بضعة أرطال من الشهوات المفلتة، ولا يلفت نظره: ألوف الأطنان من الشهوانية السائبة، بل يسقط هذه الأطنان على صاحب الأرطال، وفي كل شر.

المثل الثالث هو: المنابع والمصادر الثقافية (وهذا هو جوهر المقال الذي يبسط القول في هذه النقطة التي أجملت في مقال الأسبوع الماضي).. فلم تكد أحداث سبتمبر تقع حتى طفقت دوائر معروفة تبدئ وتعيد وتكثر الكلام حول: أن للإرهاب منابع وأن هذه المنابع هي: المناهج الدينية والثقافية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولم ينحصر التشنيع والاتهام في (الاجتهادات البشرية) التي تصيب وتخطئ، وإنما تعدى هذه الاجتهادات إلى (المصادر العظمى) لدين الإسلام، أي الكتاب والسنة.

وهذا توجه ينطوي على ثلاثة (مخاطر) حقيقية لا وهمية، وجدية غير هازلة:

أ ـ فهذا التوجه (تدخل في الحرية الدينية) للمسلمين. فهو ينزع

إلى أن يعلّم المسلمين كيف يعتقدون؟ وماذا يعتقدون؟ وماذا عليهم أن يتركوه من المعتقدات؟

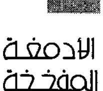
ب ـ وهو توجه يحمل (المطالب الصهيونية) ويترجمها على نطاق واسع. فمنذ مدة طويلة، تطالب المؤسسة الصهيونية بـ (تعديل) الإسلام نفسه، وفق دعوى تدعيها وهي: أن (المشكلة) في الإسلام نفسه، لا في أتباعه فحسب، وأنه بناء على هذه الدعوى، ينبغي أن ينعقد (إجماع دولي) لمواجهة مصدر التهديد وهو الإسلام.. ولقد جدد الحاخام اليهودي الأمريكي الشهير (مارفين هير) ـ منذ أسبوع ـ هذه الدعوى، عبر برنامج (لاري كنج).. ومما قاله هذا الحاخام: ولو سألتني بشكل مباشر: هل هناك آراء متطرفة في القرآن؟ سوف أقول نعم.

جـ ـ وهو توجه يؤيد ـ بقوة ـ مقولات (الإرهابيين) الذين يقولون: إن الغرب ـ والأمريكان بوجه خاص ـ يحاربوننا على أساس عقدي ديني.

ولنبسط القول ـ الآن ـ في (المؤسسات) والاتجاهات التي تغذي الناس هناك بآراء ومواقف متحاملة على الإسلام والعرب والمسلمين.

أولا ـ في الولايات المتحدة الأمريكية:

على الرغم من أن أمريكا دولة علمانية وفق نص التعديل الأول من الدستور الأمريكي وهو النص الذي يقول: «لن يصدر



الكونجرس أي قانون بصدد ترسيخ الدين أو منع ممارسته».. وعلى الرغم من التفسير القاطع الذي قدمه الرئيس الأمريكي الأسبق (جيفرسون) إذ قال: «هدف التعديل الأول في الدستور هو: إنشاء حائط فاصل بين الكنيسة والدولة».. وعلى الرغم من تفسير المحاكم الأمريكية لهذا التعديل أيضا، أي التفسير الذي يقول: «لا تستطيع الولاية أو الحكومة الاتحادية تأسيس كنيسة أو سن قوانين تساعد أي دين أو تفضل ديناً على آخر أو تجبر إنسانا أو تؤثر فيه ليذهب أو يبتعد عن الكنيسة ضد رغبته». على الرغم من ذلك كله، فإن العلاقة بين الدين والدولة في أمريكا لا تزال قوية، ولا يزال (المد المسيحي) ينمو ويتأصل.. وهذا وضع لا يزعجنا، بل يسرنا أن يفيء النصارى إلى ديانتهم. فهذه إفاءة تقربهم إلينا ـ بموجب النص القرآني ـ ثم إن الإيمان بكتاب، أفضل ـ بيقين ـ من الإلحاد. يضم إلى ذلك: أن التمسك بمقادير من القيم المسيحية يبقي على تماسك الأسرة، ولقد سرنا ـ مثلاً ـ أن اكثر من ٧٠٪ من أعضاء مؤتمر الترشيح للرئاسة ـ في أحد الحزبين الكبيرين ـ متزوجون ولديهم عوائل. وهناك المقادير الأخلاقية التي تنشأ عن التمسك بالمسيحية، وهي مقادير مشتركة في الغالب.

هذا الانعطاف نحو الديانة المسيحية امتد إلى الحياة السياسية.. يقول الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر)..: «يلعب الدين دوراً حاسماً في الحياة السياسية لأمتنا». وقال (رونالد ريغان)

مثل قوله.. أما الرئيس الأمريكي الحالي (جورج بوش) الثاني فقد صرح بانه: «لن يدخل الجنة من لم يؤمن بالمسيح (نحن نؤمن بالمسيح) وبأن المسيح هو الفيلسوف الذي يتلقى منه الحكمة والسداد».. ومن المفارقات: أن اليهود في أمريكا أثاروا ضجة كبرى حول مسألة (عدم الإيمان) بالمسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم.. لماذا؟.. لأنهم لم يؤمنوا به لا بالأمس ولا اليوم.

وفي ظل هذا الانبعاث المسيحي، حصل ارتباط قوي بين جامعات عديدة وبين الكنيسة. ومن هذه الجامعات: الجامعة الأمريكية وجامعة جورج تاون في واشنطن، وجامعتا ديتون في ولاية أوهايو، وبيلور في ولاية تكساس، وجامعة أموري في مدينة أتلانتا، وجامعة دنفر في كولورادو وجامعة ديوك في كارولينا الشمالية، كما نشأت مؤسسات تعليمية دينية كثيرة منها: (جامعة الحرية) التي أسسها أشهر قس أمريكي وهو (جيري فولويل) الذي قدر: أن يصل عدد طلاب هذه الجامعة ٥٠ ألف طالب مع نهاية القرن الماضي، ويتعلم الطلاب في هذه الجامعة علوم اللاهوت من منظور يهودي، كما أنشأ هذا القس أكثر من ٢٠ ألف مدرسة دينية، وهذا مثال فحسب. أما في المجال الإعلامي، فإن الحركة المسيحية الأصولية تسيطر على معظم شبكة محطات الكنيسة المرئية والمسموعة، أي المحطات التلفزيونية والإذاعية.

ومع اجتناب الوقوع في خطأ التعميم، فمن المؤكد: أنه يصدر

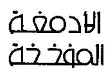
عن هذه المؤسسات ما يؤيد الظلم والإرهاب الصهيونيين.

ومن ذلك ما قاله جيري فولويل إذ قال: «إن الوقوف ضد إسرائيل هو معارضة لله».. وكأن (شارون) ـ مثلا ـ هو المعبر عن إرادة الله!.. ويصدر عن هذه المؤسسات ما يتعمد تقبيح وجه العرب.. ومن ذلك ما قاله القس (بات روبرتسون) إذ قال: «إن الله يقف بجانب إسرائيل، وليس بجانب العرب الإسرائيليين». هذه العقليات التي تزكي الإرهاب وتشوه صورة العرب والمسلمين، ألم تتكون في جامعات ومدارس دينية في الولايات المتحدة؟

ثانياً ـ المؤسسة الصهيونية:

إن العنف والإرهاب الذي مارسته ولا تزال تمارسه هذه المؤسسة، إن هو إلا ثمرة (التعليم الديني) اليهودي، فمع السنوات الأولى لنشأة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة: صدر قانون التعليم الذي قسم المدارس إلى نوعين: مدارس حكومية تضم ثلثي الطلاب ومدارس حكومية ينتظم فيها الثلث الباقي. مع ملاحظة أن نصيب التعليم الديني كبير جداً في المدارس الصهيونية العامة، وثمة مادة بعنوان (الوعي اليهودي) يدرسها الطلاب كافة.

وفي هذه المدارس تخرج غلاة الصهاينة الذين احترفوا الإرهاب، ويمارسون قتل (الأغيار) بنفسية من يمارس هوايته المفضلة!! إن (إيجال عامير) ـ وهو ابن حاخام ـ الذي اغتال إسحاق رابين قد تربى ونشأ وتكون على تعاليم (المدارس التلمودية) ومن أفضل



الكتب التي كان هذا القاتل يدمن على قراءتها (سيرة باروخ جولد شتاين) الذي قتل ٢٧ فلسطينيا مسلماً وهم يؤدون صلاة الفجر في المسجد الإبراهيمي.

فهل تنتظم الدعوة إلى تغيير المناهج الدينية: مناهج الجامعات والكليات والمدارس الدينية في كل من الولايات المتحدة وإسرائيل؟

وهل يوافق أصحاب هذه الدعوة على (خيار الصفر الأيديولوجي) الذي اقترحناه - من قبل - أم أن المطلوب - فحسب - هو: أن يهجر المسلمون - وحدهم - دينهم ومصادر هويتهم وإلا فهم (إرهابيون) بالهوية والجبلة والديانة؟!

تكلم أيها الرئيس
قبل احتراق الكوكب

هذه رسالة ـ غير سرية ـ
للرئيس الأمريكي: جورج بوش

إن الحقيقة الواقعية الشديدة المرارة، التي لا تسر عاقلاً في العالم الإسلامي، ولا عاقلاً في الولايات المتحدة هي: أن العلاقات بين أمريكا والعالم الإسلامي تتعرض للاهتزاز والتصدع في السنوات الأخيرة - على وجه التخصيص - .. ولقد كان شعوركم قوياً بهذا الوضع، عبرتم عنه في أثناء حملتكم الانتخابية الرئاسية بقولكم: «لقد تضاعف العداء للولايات المتحدة بين الشعوب العربية»، وحاولتم معالجة هذه الظاهرة على المستوى الوطني الأمريكي فقلتم في أثناء الحملة الانتخابية أيضاً: «إن أمتنا اختارها الرب. وعلينا أن نكون نموذجاً يحتذى في العدالة والتنوع. فاليهود والمسيحيون والمسلمون يلتقون في التعبير عن التزامهم بمجتمع خير وعادل ومتسامح».. وأكدتم هذا المفهوم وأصّلتموه في خطاب أداء القسم الرئاسي حيث قلتم: «علينا أن نعترف بالدور العملي للكنيسة والمسجد والمعبد في حياة

بتاريخ ١٢/١٠/٢٠٠٢م.

الأمـريكيين إذ إن للأخـلاق أثرها في الارتقاء بـالمجتـمع وفي حمايته».

وكان هذا توجهـاً عادلاً وحصيفاً. فالمسلـمون الأمريكيون جزء من نسيج المجتمع الأمـريكي.. ومن الحفاظ على الوحدة الوطنيـة: مسـاواتهم باليـهود والمسـيحـيين في الحـقـوق والفرص.

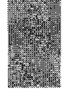
بيد أن الأحداث الإجرامـيـة التي وقعت فـي ١١ سبتـمبـر عـام ٢٠٠١ بدت وكـأنـهـا تقـويض لـهـذا التـوجـه: على المستويين: الأمريكي والعالمي.

فـمنذ ذلك الحين توالـى التشـهـيـر الإعـلامي بالمـسلمين، والحط مـن مكـانتـهم، وتـشـويه صـورتـهم، علـى ألسـنة أمريكيين من مختلف المستويات.

ثم تصـاعـد التـشـهـيـر والقـذف والقـدح حـتـى انصب على الإسـلام نفسـه: رسـالة ورسـولاً.

لقـد سـخـر وزير فـيـدرالي رسـمـي من الإله الـذي يعـبـده المسلمون ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ـ كما جاء في القرآن ـ حين قـال الوزير: «إن إله المـسلمين يـحـرضـهم علـى قـتل الآخـرين عن طريق عـمليات انـتـحـارية يقوم بـهـا القـتلة. إنه إله يرسل الناس ليموتوا من أجله».

ودأب رجـال دين أمـريـكيـون قـريبـون من دوائـر صنع القـرار على الطعن الصـريح المبـاشـر في القـرآن، والإسـلام،



والنبي محمد.. فمنهم من قال: «القرآن هو مصدر العنف».. ومنهم من قال: «إن الدين الإسلامي شيطان ضخم».. ومنهم من قال: «إن النبي محمداً قاتل وإرهابي ومتعصب بالكامل».

وهذا اعتداء كامل على ديانة مسلمي الولايات المتحدة.

واعتداء كامل على عقيدة العالم الإسلامي كله.

لقد اعتدي عليكم في دياركم، فسارعتم إلى تجنيد كل شيء أمريكي - وغير أمريكي - من أجل ردع العدوان، واسترداد الكرامة والهيبة الأمريكيتين.. ومن غير انتقاص ذرة واحدة من غيرتكم على رموز حضارتكم، واعتزازكم بها، فإن لرسول الإسلام مكانة في نفوس المسلمين لا تدانيها مكانة أخرى، بعد مقام الألوهية.. وبالحق نفسه الذي انطلقتم منه للدفاع عن حماكم وحصونكم: من حق المسلمين أن يدافعوا عن نبيهم الكريم بكل وسيلة مشروعة.

لنسلم جميعا بالواقع، ولنعترف بأن عندنا (غلاة) يسيئون إلى العلاقات بين الولايات المتحدة والأمة الإسلامية.. ولنسلم - كذلك - بأن في الولايات المتحدة (غلاة) يفعلون الشيء نفسه. والفرق الكبير هنا هو: أن غلاة المسلمين ليسوا رسميين، ولا قريبين من دوائر القرار الرسمي، بل إن المراجع الرسمية: الدينية والسياسية قد جرّمتهم ودانتهم. بينما الغلاة في الولايات المتحدة: منهم

الرسمي، ومنهم من هو قريب من الحمى الرسمي.. ثم إن غلاة المسلمين، لم يجترئ أحد منهم على الطعن في السيد المسيح عليه الصلاة السلام، في حين اجترأ غلاة أمريكا على الطعن في النبي محمد عليه السلام.. وهذا لتبيين المفارقات فحسب، وإلا فإن أي عاقل أمين لا يستطيع أن يلطف من جريمة غلاة المسلمين.

وثق أيها الرئيس: أنه مهما فعل المتطاولون على نبينا، فلن نعاملهم بالمثل، فالمثلية في هذا المقام تعني شتم السيد المسيح والطعن في شخصيته ونبوته. ومن يفعل ذلك من المسلمين يكفر بالنبي محمد نفسه.

حين كنتَ مرشحاً لمنصب حاكم ولاية تكساس قلت: «إن الذين لا يؤمنون بيسوع لن يدخلوا الجنة»، فثار عليك قوم معروفون: لا يؤمنون بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.. أما نحن فقد أيدناك في اعتقادك هذا، ليس من مدخل المناورة السياسية، ولا التكتيك الظرفي، وإنما من مرتكز (إيماني) راسخ وهو: أن الإيمان بالمسيح عيسى ابن مريم، من أركان الإيمان في الإسلام، ومن السبل الموصلة إلى الجنة. ولقد قال نبينا محمد: «**من شهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**».

إن للمسيح عليه السلام: صورة جميلة كاملة في الإسلام: تتمثل في معجزة الميلاد.. ومعجزة الرسالة وتعاليمها.. والنبي الجميل الوجيه في الدنيا والآخرة.. ونهاية المسيح الرفيعة.. ثم مجيئه من جديد بالرحمة والسلام: مبشراً بالدين الحق، ومتعاوناً مع المسلمين على البر والتقوى وكرائم الأعمال وصالحها.. وهذه الصورة الوضيئة التي قدم فيها الإسلام: المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: داع للبر والتقدير والاحترام بين المسلمين وبين المسيحيين ذوي الضمائر، لا داعية إلى البغضاء والتطاول على الأنبياء.

لقد شقيت البشرية بالأفعال الشريرة، ولكن منبع هذه الأفعال: (أفكار) شريرة و(أدمغة مفخخة) محشوة بالتعصب والعنصرية.

وأخطر ما في هذه الأفكار: ما كان متلبساً بالدين، ومعجونًا بشعاره.

في العالم اليوم (صحوات دينية). ومن التجافي عن الواقع: الادعاء بأن هذه الصحوة محصورة في المسلمين وحدهم، إذ إن هناك صحوات دينية أخرى: كاثوليكية.. وبروتستانتية.. وأرثوذكسية.. ويهودية.. وبوذية.. وهندوسية إلخ.

ولأسباب عديدة: يشهد الكوكب الأرضي (توتراً دينياً)

محفوفاً بالمخاطر.. وثمة خيارات ثلاثة تجاه هذا التوتر الديني: خيار إلغاء الصحوات الدينية، وهذا خيار غير مستطاع.. وخيار ترك التوتر يتصاعد حتى يتحول الى احتكاك فصدام. وعندئذ يحترق الكوكب بلهب الصراع الديني.. والخيار الثالث هو: اتفاق العقلاء ـ من كل ملة ـ على خفض درجة التوتر الديني. وأولى الخطوات في هذا الاتجاه الراشد: الكف عن التطاول على الأنبياء والمرسلين.

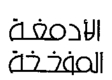
إن وقائع التاريخ شاهدة على فظائع الحروب الدينية. فقد منحت الحروب التي تسترت باسم الدين: القتل الظالم (شرعية دينية). فكان الإنسان يذبح أخاه الإنسان ظلماً وهو موقن بأنه يتقرب إلى الله بأفضل القربات.. ومن النماذج الكبيرة في ذلك: الحروب التي انتحلت الصليب شعاراً لها.. والحروب الدينية في أوربا.

إن المؤسسين الأوائل لأمريكا هاجروا من أوربا إلى أمريكا لكي يقيموا مجتمعاً أو دولة خالية من روح الحروب الدينية التي أفسدت طعم كل شيء في أوربا.. ومن أجل التحرر من التوترات والمشاحنات والصراعات الدينية: نص الدستور الأمريكي على أنه «لن يصدر الكونجرس أي قانون بصدد ترسيخ الدين أو منع ممارسته».. وقد بين الرئيس الأمريكي المؤسس (توماس جيفرسون) المقصود من هذا النص فقال: «هدف التعديل الأول هو: إنشاء حائط فاصل

بين الكنيسة والدولة».. وفي عام ١٨٩٩، فسر القضاء الأمريكي: الفقرة الخاصة بالدين في الدستور بما نصه: «لا تستطيع الولاية أو الحكومة الاتحادية تأسيس كنيسة أو سن قوانين تساعد أي دين أو تفضل ديناً على آخر».. ولا شك: أن تجربة أوربا المرعبة في الحروب الدينية كانت حاضرة في النص الدستوري، وفي تفسيراته.. وهذه النقاهة من روح التعصب الديني هي التي ميزت المجتمع الأمريكي بميزتي: التسامح، وسعة الأفق، وهما ميزتان يسعى المتطرفون إلى تجريد أمريكا منهما، وهو تجريد يصيب صورة الولايات المتحدة في الخارج بتشوهات شديدة الأذى.

إن وزارة الخارجية الأمريكية، وكذلك اللجنة المختصة في مجلس النواب، لا تزالان تجتهدان في رسم خطة لتحسين صورة الولايات المتحدة لدى الرأي العام العربي الإسلامي.. وهذا حق لأمريكا. فما يسر فرداً راشداً، ولا دولة عاقلة: أن تكون صورتها قبيحة عند الآخرين. فالإنسان ـ فرداً كان أم شعباً أم دولة ـ إنما هو (صورة) في التحليل النهائي. ولكن من غير المفهوم: أن تسعى أمريكا ـ بعقل ـ إلى تحسين صورتها، في ذات الوقت الذي تسمح فيه لمتطرفين بأن يهدموا خطط التحسين، أو على الأقل تتغاضى عما يفعلون.

كيف يمكن أن تنجح خطط تحسين الصورة الأمريكية عند

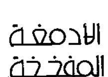


الرأي العام الإسلامي، بينما تهاجم رموز أمريكية نبي المسلمين الذي هو أغلى عندهم من آبائهم وأمهاتهم وأولادهم، وأحب إليهم من أنفسهم التي بين جنباتهم؟.. صحيح أن التعميم خاطئ، بيد أن الاستفزاز فوق طاقة الاحتمال.

إن هذه الحملة الفكرية الإعلامية التي جعلت من الطعن في الإسلام ونبيه مادة لها، تخدم الإرهابيين من حيث رفع معدلات تصديق منطقهم القائل: إن الولايات المتحدة تعادي الإسلام ذاته وتحاربه، وتتيح الفرصة لتفسير كل سياسة أمريكية تجاه العالم الإسلامي ـ بعد أحداث ١١ سبتمبر ـ بأنها ذات دوافع وأهداف دينية.

ولستم في حاجة إلى مزيد علم بأن تردي العلاقة الأمريكية مع أمة كبيرة وهي الأمة الإسلامية، يمس الأمن القومي الأمريكي في الصميم.. وبعد أحداث سبتمبر ثبتت إمكانية لجم وسائل الإعلام الأمريكية أو ضبطها فيما يتعلق بالأمن القومي، ولذلك، فإن الرئاسة الأمريكية تستطيع أن تعالج ظاهرة العدوان على (المقدس) الإسلامي بما تعرف كيف تعالجه به. فحرية التعبير مشروطة ومضبوطة بما لا يهدر حرمة عقائد الشعوب والأمم.

ومن مسؤولية العقلاء في أمريكا والعالم الإسلامي أن يركضوا ـ بإخلاص ومثابرة ـ لاحتجاز تداعيات سبتمبر



ومنعها من أن تتحول إلى (صراع ديني) دونه أسلحة الدمار الشامل.

ومن المشورة التلقائية الواجبة، ومن الأمانة المعرفية أن نقول: إن جذوة الغضب تتقد في قلوب مسلمي العالم: خاصتهم وعامتهم، بسبب هذه الحملة على الإسلام نفسه: رسالة ورسولاً. ولو كان غضباً مهووساً لأسقطناه من الحساب، ولكنه غضب حق، للحق. ومَن من المؤمنين لا يغضب اذا سب إلهه، وشتم رسوله؟

تكلم أيها الرئيس. وقل كلمتك التاريخية التي تنأى بأمريكا الرسمية عن الإساءة طويلة المدى للإسلام.. تكلم من أجل علاقة أوثق وأنفع مع العالم الإسلامي: نحتاج إليها نحن وأنتم.. ومن أجل حماية كوكبنا هذا من أن يحترق بنيران التعصب الديني وصراعاته. وأنْ تفعل هذا، فهذا هو المجد الحقيقي.

تمام الكتاب

الفكرة الأصل: المؤسِّسة للكتاب، والسارية في سطوره: أن (الفعل) البشري، يُسبق ـ بالضرورة ـ بـ (فكرة). سواء أكان الفعل فردياً أم جماعياً: عملاً جزئياً أم مكتملاً: تبدى في صورة إعلامية، أم في شكل سياسي، أم في نشاط اجتماعي، أم في أداء اقتصادي وإداري، أم في صيغة تسخير العلم والتقنية، أم في كتاب، أم في مؤتمر، أم في صلات عائلية، أم في علاقات دولية.. وسواء أكانت الفكرة خيِّرة أم شريرة.

وهذه الفكرة ـ المترجمة للإدراك والإرادة والنية والقصد ـ هي: مناط المسؤولية: تعييناً وتحمّلاً، ومناط الثواب والعقاب:

● ففي البدء: صدر موقف إبليس عن (فكرة) التمرد، وادعاء الخيرية العنصرية على آدم.. وصدر موقف قابيل عن (فكرة): التنفيس عن الضغن، وفض المشاحنة، وإنهاء الخصومة بـ (القتل).. وكان وراء الصراعات الحمقاء المحزنة في التاريخ البشري: فكرة أو أفكار.

● في العصر الحديث: كانت (الفكرة) هي خميرة الموبقات الآتية وبذرتها. موبقات: الأسلحة النووية والجرثومية والكيماوية.. وتجارة المخدرات.. وإحياء العنصرية.. والاستبداد في الأرض على مستويات وطنية وعالمية.. ونشوء حركات العنف والبطش.. واندلاع الحروب.. والاجتياحات الاستعمارية..

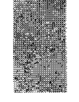
والتبشير بالمناطحة بين الحضارات.. وتسويغ الظلم ومناصرته.. وتحريف مفاهيم الجهاد والأمر والنهي والولاء والبراء.. وانتشار ثقافة العنف في وسائل الإعلام.. والنزوع إلى (إلغاء التعددية البشرية الكونية) من خلال (احتكار الصواب الحضاري) وفرض نموذج حضاري مفرد على الإنسانية كلها.. واستغلال المبادئ الصحيحة الجميلة ـ المتفق عليها ـ في نوال أهداف سياسية بينها وبين تلك المبادئ: أمد بعيد.

على الضد من ذلك: كانت (الفكرة) المضيئة البانية النافعة: ينبوع مواثيق السلام والعدل.. وتدابير نظافة البيئة ونقائها.. واتجاهات انتشار الحريات العامة الحقة.. وصيغ التعاون الإنساني العام.. وتسخير العلم والتقنية لراحة الإنسان وسعادته.. ومحاصرة الأمراض والأوبئة في أضيق دائرة.. والركض البارّ ـ المفرد والمشترك ـ من أجل إطعام جائع، وعلاج مريض، وإغاثة ملهوف.. والحرص العظيم على نشر التعليم.. والاحتفاء المتزايد بحقوق الإنسان.. وتضييق الخناق على النزعة العنصرية.. ومناهضة الحروب.. ونشوء (وعي كوكبي) متعاظم حول هذه القضايا المشتركة.

وهذه الأفكار الينابيع ـ للصالحات الراقيات النافعات من الأفعال والمسالك والمواقف ـ: شارك فيها البشر أجمعون: أنى كانت أعراقهم وألسنتهم وألوانهم ومواقعهم الجغرافية ودياناتهم ومذاهبهم.

حصحص الأمر. وتبين: أن مسيرة الفعل البشري والسلوك البشري: منبثقة من فكرة. ومغذاة بفكرة. ومحكومة بفكرة.

هذه حقيقة: يقررها: الاستقراء التاريخي، والدراسة الموضوعية، والتعليل العقلي.



وتقرير هذه الحقيقة لا يكفي وحده ـ على أهميته العالية ـ بل يتعين أن يكون (قاعدة) للاتفاق المبدئي، والتطبيق العملي.

كيف:

أولاً: بأن يحصل اتفاق، أو ينعقد إجماع بشري قوي على (تطهير) الكوكب ـ أو تطهير أوسع قدر مستطاع منه ـ من الأفكار المريضة الشريرة المدمرة المتعدية ـ التي يتعدى ضررها إلى الغير ـ بحسبان هذه الأفكار (وباء عاماً) يجتاح مدائن العالم وقراه بلا استثناء، ويتلف صحة الإنسان النفسية، ويفسد عليه حياته الاجتماعية والعملية، ويهدد أمنه العام.

ثانياً: أن ذلك كله ـ على أهميته العالية أيضاً ـ لا يمثل إلا نصف الحقيقة. أما نصفها الآخر فهو (التعاون العملي الناجز والمطرد) على إطلاق موجات عالية ورائقة وسائغة من الأفكار السوية الراشدة المبدعة الخيّرة البانية.

وموجات الفكر الرائقة الراشدة المطلوب تدفقها ـ على عجل وعلى مكث ـ ليست أمنية تُتَمنّى، بل هي (ثمرة منهج): يتبع بانتظام، وتستقيم به ـ وعليه ـ حركة التفكير، ويستفيض إبداعها، وينعدم أو يقل ـ أو ينحصر في حدود الخطأ البشري المعتاد المكتوب على بني آدم ـ عوجها وانحرافها.

ما المنهج؟

لئن تعذر التوسع في شرح المنهج الآن، فليس يصعب استكشاف أسسه الأهم، وهي خمسة:

١ ـ السنن الكونية والاجتماعية الثابتة التي ما شذ عنها شاذ إلا كان مصدر بؤس وأذى لنفسه وللآخرين.

٢ ـ هدى الدين الذي يؤدي الانحراف عنه إلى الحرمان من أعظم

ما (يرقّي ذات الإنسان)، كما يؤدي الغلو فيه إلى ما يتعس الغالي، ويجعله أداة تنكيد وترويع وتدمير.

٣ـ حقائق العلم التي تجتلي السنن الكونية والاجتماعية وتؤكدها، وتعين على فهم هدي الدين، وزيادة الإيمان به.

٤ـ (وحدة الأسرة البشرية). فبدون كفران أو إخلال بمفهوم (التنوع) العرقي واللساني واللوني والثقافي بين البشر: ثمة (مخاطر ومنافع) يتعرض لها الناس ـ بصفتهم ـ وبمقتضى العقل والمصلحة والغريزة: يلزم (تجديد الإحساس) بوحدة الأسرة البشرية: دفعاً للمخاطر، وتحصيلاً للمنافع، وفي طليعتها: مخاطر الفكر ومنافعه.

٥ـ (الوحدة الجغرافية الكوكبية). فمع اليقين السياسي والقانوني الراسخ بضرورة الحفاظ الدائم على استقلالات الدول وسياداتها، يجب اليقين بـ (ثابت) مكاني وجغرافي وحضاري وهو: أن كوكبنا هذا قد أضحى ـ كله ـ مسرحاً واسعاً ومفتوحاً لحركة الأفكار، وتنقلات البشر واختلاطهم.. وهذه حقيقة: يعزز الاقتناع بها (مفهوم الأمن الجماعي) العالمي، ولا سيما في مجال المفاهيم والأفكار.

لكي يصح الفعل والسلوك، لابد أن يصح التفكير ـ قبلاً ـ ولن يصح التفكير إلا إذا التَزَمَ هذا المنهج ذا الأسس الخمسة.

والسطور الآنفة: تهيئة لما بعدها من واجبات ومسؤوليات وإصلاحات مستصحبة للمنهج ذاته، ومنبثقة منه.

إن عامة الناس يخطئون في التفكير، لأنهم لا يملكون المنهج الذي يرشّد حركة تفكيرهم ويضبطها بما يقربها من الاستواء



والإبداع النافع، ويباعد بينها وبين الشطط والانحراف.

ومن دون نقصان من مسؤوليتهم، فإن هؤلاء الناس - في حقيقة الأمر -(أثر بائس) من آثار آخرين.

من هم الآخرون هؤلاء؟

هم (المُوجِّهون)، في مختلف مواقع التوجيه، ومصادره، ومعابره، ومنابره ومقاعده: الموجهون في التعليم. والدين. والنفس. والفن. والاجتماع. والإعلام. والسياسة. والثقافة، والأدب.

إن المعضل الحقيقي محصور - بصفة رئيسة - في هؤلاء الموجهين الذين يتولون قيادة المنطقة المعنوية في الإنسان.. فلو صح التوجيه، لصح تفكير الناس، وصح فعلهم وسلوكهم، ولنجت أمخاخهم وعقولهم ومداركهم من الإتلاف والإفساد والتفخيخ، ولسلمت المجتمعات - من ثم - بنسب عالية - على الأقل - من شرور الغلو والتطرف والعنف وسائر الانحرافات الفكرية وآثارها.

جماع الأمر: أن الإصلاح لن يجدي إلا إذا بدأ من المصدر والمنبع وهو منطقة الدماغ والعقل والفكر. أما محاولة الإصلاح عند المصب فحسب، فهي محفوفة بالخسران والبوار. والدليل على ذلك: أنه كلما قيل: إن ظواهر الغلو قد دخلت في طور المحاق: ارتجت الأرض بظواهر جديدة من الغلو من كل نوع: الغلو والإرهاب السياسي والاجتماعي والديني والفكري والإعلامي.. والغلو والإرهاب المعنوي والمادي.. والغلو والإرهاب على كل مستوى: إرهاب الفرد وإرهاب الجماعة. وإرهاب الدولة.

هذا تمام الكتاب والحمد لله الذي وفق وأعان وتمم.


غَيناء للدراسات والإعلام
هاتف: ٢٤٨٧٨٧١ ـ فاكس: ٢٤٩٨١٣٠